

سورة المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ؕ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ؕ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا تَجْرِمَنكُمْ شَتَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ؕ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ؕ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ ؕ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾

بِالْعُقُودِ: بالعهود المؤكدة الوثيقة

الْأَنْعَام: الإبل والبقر والضأن والمعز.

غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ: غير مستحليه فهو حرام.

وَأَنْتُمْ حُرْمٌ: وأنتم محرمون بالحج أو العمرة.

لَا تُحْلُوا: لا تنتهكوا.

الشَّهْرَ الْحَرَامَ: الأشهر الأربعة الحرم.

الْهَدْيَ: ما يهدي من الأنعام إلى الكعبة.

الْقَلَائِدَ: ما يقلد به الهدي علامة له.

ءَامِينَ الْبَيْتِ: قاصدينه وهم الحجاج والعمار.

وَلَا تَجْرِمَنكُمْ: لا يحملنكم أو لا يكسينكم.

سَنَانُ قَوْمٍ: بغضكم لهم .

إن حياة المؤمن هي حياة التزام وانضباط ؛ فبالرغم من كونه حراً ، فإنه يتخذ من ذاته إنساناً مسئولاً ملتزماً ؛ اعترافاً بولاية الله وسلطته العليا عليه ، إذن فكلما أراد أن يعالج أمراً من الأمور ، سواء أكان يتصل بحق الله أم بحق العباد ، فلا يعالجه تبعاً لهواه ، متحرراً من كل قيد شرعي أو ضابطة أخلاقية ، بل خاضعاً لوصايا الله عز وجل ، ومن ثم فهو لا يأكل إلا ما أحله الله من المأكّل ، ولا تمتد يده أبداً إلى ما حرمه الله منها ، وهو يروض نفسه على التسليم والإذعان المطلق حتى ولو نُهي في مناسبة ما عن بعض المباحات ، كما يتضح من الأحكام الواردة بشأن الاصطياد في حالة الإحرام ، أو القتال في الأشهر الحرم وهو يحترم كل شيء صار بمثابة علامة على حقيقة دينية معينة ؛ لأن احترام شيء كهذا هو احترام للدين بعينه ، وإنه إذ يفعل ذلك كله فإنما يفعله بدافع الخوف من الله ، وليس بدافع آخر سواه.

وربما يعمل المرء على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه في الظروف المعتادة ، ولكن عندما تتغير هذه الظروف يتحول إلى إنسان آخر يُنال ما كان من قبل ، وهذا يحدث عندما ينال منه أحد خصومه ويستثير حفيظته ، فإذا بالذي كان يخشى الله يتجرد فجأة من مخافة الله ، وبالتالي ينسى أو يتناسى كل حدود العدل والإنصاف ، ولا يعود لديه بعدئذ هم يشغل باله سوى محاولة التشفي من خصمه ذاك و النكاية به بأية صورة ممكنة ، غير أن هذا النوع من التحركات العدوانية لا يجوز عند الله تعالى البتة ، حتى ولا مع أولئك المعاندين الذين كانوا قد تصدوا لمنع عباد الله من ممارسة عمل مقدس كزيارة المسجد الحرام.

وإنه لو أخذ بعض الناس في التعاون مع شخصٍ قام باتخاذ خطواتٍ عدوانيةٍ من هذا النوع ، فإن ذلك يندرج ضمن التعاون الإجرامي الأثيم ! في حين ينبغي على عباد الله المتقين حقاً ألا يتعاونوا إلا على أعمال الخير والصلاح وحدها ، وإن من أصعب

الأمر في هذه الدنيا ، هو التعاون مع صاحب الحق ، وبند التعاون مع الذي ليس على الحق ، إلا أن هذا العمل الصعب هو الذي يتوقف عليه بالذات مصير الإنسان الأخروي سلباً أو إيجاباً !!

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

وَالْدَّمُ: الدم المسفوح وهو السائل.

وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ: يعني الخنزير بجميع أنواعه.

وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ: ما ذكر عند ذبحه اسم غيره تعالى .

وَالْمُنْخَنِقَةُ: الميتة بالخنق.

وَالْمَوْقُوذَةُ: الميتة بالضرب.

وَالْمُتَرَدِّيَةُ: الميتة بالسقوط من علو.

وَالنَّطِيحَةُ: الميتة بالنطح.

وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ: ما أكل منه فمات بجرحه.

مَا ذَكَّيْتُمْ: ما أدركتموه وفيه حياة فذبحتموه.

النُّصُبُ: حجارة حول الكعبة يعظمونها.

تَسْتَقْسِمُوا: تطلبوا معرفة ما قسم لكم.

بِالْأَزْلَامِ: قدام معلمة معروفة في الجاهلية.

ذَلِكُمْ فِشْقٌ: خروج عن طاعة الله إلى معصيته.

اضْطُرَّ: أُلْجِئته الضرورة للتناول منها.

مُحْمَصَةٌ: مجاعة شديدة.

مُتَجَانِفٌ لِإِثْمٍ: مائل إليه بتجاوز قدر الضرورة.

من الحيوانات ما لا تصلح لحومها أن تكون غذاء للإنسان كالحنزير ، كما أن جسم الحيوان المباح أكله يحتوي على عناصر غير صالحة للغذاء الإنساني ، والدم من جملة هذه العناصر غير الصالحة ، ولقد حدد الإسلام طريقة خاصة لذبح الحيوان تتكفل باستنزاف دمه على نحو كامل ، وأما الطرق الأخرى لإرهاق روح الحيوان ، ما عدا الذبح الشرعي ، فهي غير كفيلة بذلك ، بحيث إن الدم لا يلبث أن يحتقن ويترسب في لحمه ، ولنفس هذا السبب فقد تم تحريم كل أنواع الميتة.

وقد حرمت الشريعة من اللحوم ما يشوبه شيء من الشرك والعقائد الوثنية ، كالحیوانات التي تذبح بغير اسم الله ، أو الذبائح التي يُقصد بها التقرب من غير الله إلا أن يكون الإنسان مضطراً لذلك ، كأن يقف الإنسان بين أمرين إما الهلاك وإما الأكل من هذه الحيوانات المحرمة ، فله إذن أن يختار الغذاء الحرام على الموت ، وهذا من سعة رحمة الله وعظيم فضله على العباد!!

وقوله : ﴿الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ يعني أن الله تعالى قد بين لكم ما ينفعكم من الأحكام والتشريعات ، وذلك بالإعلان عن تمام نزول القرآن ، على أمة محمد ﷺ والحقيقة هي أن الدين الإلهي أنزل على الإنسان في صورته الكاملة في كل العصور ، ولم يبعث الله تعالى بدين ناقص إلى البشرية قط .

ولقد أقام الله الأمة المؤمنة بالقرآن العظيم على أسسٍ وركائز متينة للغاية ، وزودها

بإمكانات وقوى ذاتية هائلة ، حتى أصبحت في مأمن من كل خطر خارجي يتهدد سلامتها، فإذا أصابتها نكسة أو بلاء كان ذلك ناشئاً عن نقائصها وأمراضها الداخلية ، وليس عن المؤامرات والهجمات الخارجية ، وإن أكبر ضمان للتخلص من الأمراض والنقائص الداخلية هو سيادة خشية الله الدائمة على أفراد الأمة!

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٠١﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

الطَّيِّبَاتُ: ما أذن الشارع في أكله.

الْجَوَارِحِ: الكواشب للصيد من السباع والطيور.

مُكَلِّبِينَ: معلمين لها الصيد.

وَطَعَامُ: ذبائح اليهود والنصارى.

وَالْمُحْصَنَاتُ: العفاف والحرائر.

أَجُورُهُنَّ: مهرهن.

مُحْصِنِينَ: متعفين بالزواج عن الزنا.

غَيْرَ مُسَافِحِينَ: غير مجاهرين بالزنا.

مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ: مصاحبي خليلات للزنا سرا.

حَبِطَ عَمَلُهُ: بطل ثواب عمله السابق.

لقد أحل للإنسان أن يأكل كل شيء تراه عين الفطرة طيباً ونظيفاً، كما أحل له أكل لحوم جميع تلك الحيوانات التي جُبلت على طبائع ملائمة لطبائع البشر، ولكن بشرط ألا يكون قد تسرب إليها أي فساد شرعي أو طبي بسبب من الأسباب الخارجية الطارئة، وبما أن الإنسان لم يكن بإمكانه أن يحدد هذا المبدأ بواسطة عقله وحده، لذا فقد تفضل الله تعالى ببيانه على وجه التحديد والتفصيل، والسر في تحليل ما يصيده الحيوان المدرب على الاقتناص إنما يكمن في أنه يُمسك الصيد على صاحبه، فكأنه قد تعلم سجية من السجايا الآدمية، وأصبح بذلك ينوب مناب الإنسان في مجال الصيد،

ومهما تم إيضاح فعل القوانين المتعلقة بالحرام والحلال وتفصيلها فإن إرادة المرء الذاتية هي التي تقوده في النهاية إلى فعل شيء ما أو تركه، فليس المرء إذن تحت رقابة القانون، بل هو بنفسه رقيب على ذاته، فلو أن المرء لم يكن يرغب في تنفيذ القانون عملياً لوجد إلى الهروب منه طرقاً شتى برغم إيمانه الظاهري به، وإنه ليس هناك شيء يبعث المرء على الالتزام بالقانون ومراعاته الشاملة لروحه وجوهره الحقيقي سوى الخشية الإلهية، ولذلك أعقب سرد المحرمات والمحلات بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

وكما بين الله ما يحل من المطعومات وما يحرم، بين كذلك ما يحل من النساء وما يحرم على المسلم، فالمسلم يحل له أن يتزوج المحصنات من المؤمنات، كما يحل له أن يتزوج المحصنات من نساء أهل الكتاب بشروط معينة وحكمة هذا التشريع هي أن المرأة مجبولة على طبيعة التأثر والانفعال، مما يفتح إمكانية اعتناقها لدين الإسلام نتيجة تأثرها بسلوك زوجها المسلم، وتعرفها المباشر على المبادئ النبيلة السامية التي تسود المجتمع الإسلامي.

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ يعنى أنه لا قيمة للعمل ما لم يكن مقترناً بالإيمان ، فإنما العمل المقبول هو الذي يكون خالصاً لوجه الله تعالى .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾

الغَائِطُ : موضع قضاء الحاجة (كناية عن الحدث)

لَا مَسْتُمُ النِّسَاءَ : واقتموهن أو مسستهم بشرتهن .

صَعِيدًا طَيِّبًا : تراباً ، أو وجه الأرض طاهراً .

حَرَجٌ : ضيق في دينه وتشريعه .

الغاية من الصلاة هي تطهير المرء من السيئات والفواحش ، والوضوء هو الاستعداد أو التأهب الخارجي لذلك التطهر الداخلي ، فحينما يريد المرء تأدية الصلاة يعتمد أولاً وقبل كل شيء إلى الماء ، حيث إن الماء هو نعمة جد عظيمة ، وهو أفضل وسيلة لغسل كل أنواع القذارة والنجاسة ، وهكذا فإن الصلاة هي الأخرى عين ربانية، ينغمس فيها المرء فيطهر نفسه من أدران العواطف الرذيلة والأفكار الخبيثة القذرة .

وإذ يصب المرء الماء على يديه ، وهو يبدأ عملية الوضوء ، فكأنما هو يدعو الله بلسان عمله قائلاً : «يا إلهى ! أعوذ بك أن تتلوث يداي هاتان بالسوء أبداً ، وأرجوك أن

تغسلها وتنظفها مما قد ارتكب بهما من المنكرات حتى الآن)) ، ثم هو يتمضمض ويستنشق ، ويغسل وجهه ، فيجد نفسه يتضرع إلى الله بلسان حاله قائلاً : «يا رب ! باعد بيني وبين كل خطيائي ، فاغفر لي ما تناولته بغمي هذا من طعام حرام ، وما تكلمت به بلساني هذا ، من كلام فاحشٍ بذيء ، ما شمتت بأنف من روائح الخبائث وما رأيت بعيني هاتين من منظر سوءٍ بغيضٍ عندك» ، ثم إذا مسح رأسه بيديه المبللتين بالماء انصهر كيانه كله تلقائياً في بوتقة الدعاء القائل : «يا إلهي طهر قلبي من كل ما نويته من سوء ، ونقّ ذهني من آثار ما دبرته من خطط ومشاريع خاطئة منحرفة ، وأعطني قلباً سليماً نقياً ، وذهناً صافياً مستقيماً» ، ثم إذا غسل رجليه ، تحول عمله ذاك طلباً منه إلى جناب ربه ، فكأنه يسأله وقتئذ أن يتكرم بغسل رجليه مما علق بهما من غبار السيئات ، وأن يوفقه للسير على طريق الحق والعدل توفيقاً لا ينحرف معه عن ذلك الطريق القويم أبداً ، وهكذا يصير الوضوء بأكمله بمثابة دعاءٍ عمليٍّ للمرء ، ويتلخص ذلك الدعاء في قوله : «اللهم اجعلني تواباً عن الذنوب ، واجعلني متطهراً من الفحشاء والمنكر» ، وفي الظروف العادية يكفي الوضوء وحده لإيجاد الشعور بالطهارة لدى المرء ، ولكن حالة الجنابة حالة غير عادية ، لذا فالتطهر منها لا يتم بالوضوء ، بل بغسل جميع البدن (أى الاغتسال) فإذا كان الوضوء غُسلًا جزئياً صغيراً ، فإن الغُسل هو وضوء كبير شامل ، فإذا لم يجد المسلم الماء ، أو كان في استعماله ضرر محتم ، فإن الله رفع عنه الحرج وشرع له التيمم لتجديد الشعور بالطهارة.

إن الأساليب الميسرة للوضوء والغسل هي من نعم الله العظيمة ، إذ من خلالها تم ربط الطهارة الشرعية بذوق النظافة الطبيعي ، وإباحة الاكتفاء «بالتيمم» في حالة العذر هي نعمة مزيّدة على ذلك ، فإنها تحول دون أن نتجه نحو الغلو في الدين ، ذلك الداء الذي ابتلي به أتباع الأديان الأخرى.

﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّقُكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ
لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ
لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَىٰ اللَّهِ
فَلْتَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

وَمِيثَاقُهُ: عهده.

شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ: شاهدين بالعدل.

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ: لا يحملنكم ، أو لا يكسبنكم.

شَنَاَنُ قَوْمٍ: بغضكم لهم.

يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ: يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك.

الإيمان هو عهد يُعقد بين العبد وربّه عز وجل ، فالعبد يقطع على نفسه وعداً بأنه
سيحارس حياته في هذه الدنيا على أساس من تقوى الله وخشيته الدائمة ، وبالمقابل
يصمّن الله لعبده أنه سيوفر له أسباب النجاح والسعادة في الدنيا والآخرة ،

وللوفاء بهذا العهد الإيماني ، لابد من أن يتوافر في العبد شرطان أساسيان : أولهما
هو: أن يصبح «قوَّاماً لله» ، ومعنى ذلك أن يبذل قصاره للعمل الدائم على تنفيذ
وصايا الله وامتثال أوامره ، وأن يصير كيانه بحيث يقدم في كل مناسبة الإجابة
الصحيحة التي ينبغي أن يتقدم بها العبد إلى ربه ، فإذا أجال بصره في أرجاء هذا الكون ،
امتلاً قلبه وذهنه روعةً وتعظيماً لقدرة الله وجلاله ، ، وإذا نظر إلى وجوده هو وجد أن

حياته كلها فضل من الله ونعمة ، وإذا تحركت مشاعره تحركت من أجل الله تعالى ، وإذا تركزت اهتماماته على شيء ، فلا تتركز إلا على الذات الإلهية ، كما يجب أن يكون حبه خالصاً لله وحده ، ومخاوفه كلها مرتبطة بالله ، وأن تكون أعماق وجوده معمورة بذكر الله ، وأن يخلص عبادته وطاعته لله ؛ فيبذل كل ما يملكه في سبيل الله عن طيب نفس ويجد في هذا الحقيقة سعادته ، والشرط الثاني للاستقامة على العهد والوفاء بحقه هو : التعامل مع العباد بالعدل ، ومعنى العدل أن تعطي كل شخص ما يستحقه في واقع الأمر من غير نقص ولا زيادة ، وأن تلتزم بالحق دون الاندفاع وراء هوى النفس في كل الشئون والمعاملات .

وعلى العبد أن يروض نفسه على الالتزام الدائم بالحق والعدل ، فلا يتخلى عنه أبداً ، حتى وهو يتعامل مع أعداء الدين ، وأنصار الباطل ، حيث تتجدد خصومات الماضي ، وتحاول صرفه عن جادة العدل والإنصاف !!

إن الله يتجلى في هذه الدنيا من خلال آياته وبراهينه الواضحة القاطعة ، فإذا ظهر البرهان الإلهي بوضوح ، وأخذ المرء في المماحكة والمجادلة الكلامية بدلاً من الإيذان به ، فقد كذب بآية الله ، وهؤلاء سيلاقون عند الله عذاباً شديداً ، وأما الذين آمنوا بها ، فإن الله سيُعطيهم أجراً عظيماً ونعيماً أبدياً .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمْوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ لَئِنَّمَا لَكُلُّ الْفَاسِقِ أَهْلٌ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلُعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ

عَنْهُمْ وَأَصْفَحَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾

نَقِيْبًا: أَمِينًا كَفِيْلًا.

وَعَزَّزْتُوْهُمْ: نَصَرْتُمُوهُمْ أَوْ عَظَّمْتُمُوهُمْ

قَرْضًا حَسَنًا: اِحْتِسَابًا بِطِيْبَةِ نَفْسٍ.

يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ: يَغْيِرُونَهُ أَوْ يُؤْوِلُونَهُ بِالْبَاطِلِ.

وَتَسُوا حَظًّا: تَرْكُوا نَصِيْبًا وَافِرًا.

خَائِنَةٌ: خِيَانَةٌ وَغَدْرٌ، أَوْ فَعْلَةٌ خَائِنَةٌ.

لقد أخذ من بني إسرائيل ، على يد نبيهم موسى - عليه الصلاة والسلام - عهد بممارسة حياة العبودية والطاعة لله ، وانتخب اثنا عشر نقيباً من أسباطهم الاثني عشر ، لكي يشرفوا على سير حياتهم الدينية ، وبموجب هذا العهد كان على بني إسرائيل أن يقيموا الصلاة ؛ لتقوية روابطهم بالله ، ويؤدوا الزكاة تطهيراً لهم وتزكية ، كما أوجب عليهم أن ينصروا رسله ، وأن يبذلوا في سبيل الدين الإلهي كل ما يملكون من رخيص وغال ، وإنهم لن يكونوا جديرين بمعية الله ونصرته ، ولا مستحقين لأن يطهرهم الله من سيئاتهم فيؤهلهم للدخول في أجواء الجنة اللطيفة المعطاءة ، إلا بعد قيامهم بإنجاز الواجبات على النحو المطلوب ، وإقامة النظام الاجتماعي على منهج الله ، فإن الجنة ينالها الناس بالعمل الصالح وبفضل الله ورحمته .

وهذه الأعمال التي أخذ الله ميثاق بني إسرائيل عليها هي أعمال الدين الجوهريّة الأساسيّة ، فإنها تمثل ذلك الطريق المستقيم الذي يؤدي بجميع البشر الذين يسلكونه إلى الله وإلى الجنة .

غير أن الأمم الأمينة على الكتاب السماوي حين يتسرب إليها الفساد ، لا تلبث أن تنحرف يميناً وشمالاً ، وعندئذ يتغير مفهوم الدين بسبب التفسيرات المزعومة الباطلة ،

وينحوض القوم في مناقشات فرعية عقيمة حول موضوع العبادة ، ويبحثون عن طرق للنجاة سهلة توصل المرء إلى المطلوب من غير اهتمام بتأدية حقوق العباد ، ويشيرون معارك دنيوية فارغة لا تمت إلى الحق بصلة قريبة ولا بعيدة ، ويفتعلون وجوهاً شتى للنفقات الدنيوية ، ويطلقون عليها «(الإنفاق في سبيل الدين)» ، وبعبارة أخرى فإنهم يقومون باختراع دين جديد يتفق ومصالحهم الدنيوية الضيقة ، ثم يأخذون في تسميته باسم الدين الإلهي .

وعندما يصل الأمر بطائفة إلى هذه المرحلة الشائنة من الفساد والانحطاط الديني ، فإن الله يحرمها من كل عناية ، وبعد الحرمان من العناية والتوفيق الإلهي لا يعي هؤلاء شيئاً سوى نداء رغباتهم وشهواتهم الهابطة ، فلا يزالون غارقين في أحوالها ، حتى يأتي ملك الموت ليسوقهم إلى محكمة الله للحساب الشديد !!

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

فَأَغْرَيْنَا: هيجنا وحرشنا، أو ألصقنا.

إن الأمم الأمانة على الكتاب السماوي حين يدب إليها الفساد والانحراف ، لا تلبث أن تندفع وراء المتشابه من جوانب الدين ، مما يؤدي إلى الاختلاف والتنازع في الدنيا، والخزي والهوان في الآخرة .

لقد وُلد سيدنا المسيح - عليه الصلاة والسلام - بلا أب ، من بطن امرأة بلغت من الطهر والعفاف أقصاه ، وعلى إثر ولادته انطلق يعرف نفسه بنفسه قائلاً : ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ؕ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ۞ فإذا نحن أقمنا الآن اعتقادنا عن المسيح على أساس الكلمات الواضحة التي قالها ﷺ عن نفسه ، نجونا من الخلافات والمنازعات

المذهبية التي لا تلبث أن يتدفق سيلها الجارف فلا يقف عند حد ، فيما إذا كان الاعتقاد عن شخصيته بنى على محض القياس البشرى ، بدلاً من قوله الصريح المحكم ، فيقال مثلاً : «إن الإنسان هو الذى يُولد من أبٍ والمسيح لم يكن قد وُلد من أبٍ ، إذن فهو ابن الله!» كما قد حدث فعلاً مع أتباع المسيح في العصور المتأخرة .

وما إن يتسرب الفساد إلى أية أمة كتابية حتى تنفشى فيها مثل هذه المساوئ والأمراض الفتاكة ، وتسري جرائم العفن والانحطاط في كيائها ، فتندفع وراء الدين المخترع نابذة الدين المحكم وراء ظهرها ، ومن هنا تنفتح أبواب الجدل والنزاع والتحزب على مصراعها ، فلا تنغلق أبداً ، فلا يكتفي الناس بالمعاني والمفاهيم اليسيرة للأحكام والتوجيهات الصريحة التي أعطاها الله والرسول في شئون التشريع والكلام ، وقضايا التزكية الروحية وأمور السياسة ، ولكنهم يخترعون ألواناً جديدة لا تُحصى من المباحث والآراء بمجرد قياساتهم العقلية ، ويكون ذلك نتيجة تأثرهم وانبهارهم بزخرفة الأفكار السائدة في عصرهم ، فيحاولون تطبيقها على نصوص الدين أو العكس ، وطوراً يكون الغرض من وراء ذلك إضفاء الصبغة الدينية على مطامعهم الدنيوية الضيقة ، وقد يضيفون إلى دين الله الناقص - على حد زعمهم - بغية إكماله أشياء لا علاقة لها بدين الله .

وهكذا تظهر إلى الوجود صور جديدة متنوعة للدين الإلهي الواحد ، فمنها صورة روحانية ، وأخرى صورة سياسية ، وثالثة ورابعة ، وهلم جرا ، وتلقى كل واحدة منها بالطبع أناساً تتفق ونزعاتهم وميولهم الذاتية ، ثم تتألف من هؤلاء في نهاية المطاف جماعة دينية ذات كيانٍ مستقل واتجاهات فكرية معينة ، ثم يتركز اهتمام أجيالهم التالية على الحفاظ على ذلك لأنه - في نظرهم - تراث للسلف الصالح ، ثم يحاط هذا التراث بالهيبة والقداسة ، لأن الإنسان دائماً ينظر إلى الماضي نظرة الإجلال والتقديس .

وإن عملية التحزب المذهبي التي تبدأ باسم الدين ، تستمد عناصر الدوام

والاستقرار - من خلال صيرورتها - عملاً مقدساً ، ومن جهة أخرى يصير هذا الاتجاه بمثابة إجازة عامة تسمح لكل حزب بإظهار البغض والعداوة ، وممارسة العنف ضد الآخرين ، لأن هذا الأمر أصبح - في نظرهم - أمراً مطلوباً عند الله سبحانه وتعالى !!

﴿ يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾

نور: هو محمد ﷺ .

هناك تصرفان خاطئان ، مارسهما أهل الكتاب - اليهود والنصارى - في دينهم ، أولهما التحريف أو التأويل الباطل ، حيث حذفوا العديد من التعاليم والواجبات الأساسية من إطار الدين ، كما أضافوا إلى نصوص الكتاب الإلهي تغييرات لفظية ومعنوية جعلتهم في غنى عن الإيمان بأي نبي آخر ؛ زعماً منهم بأن إيمانهم بأنبيائهم السابقين ، وتمسكهم بدين آبائهم التقليدي ، كافٍ لنجاتهم كل الكفاية !!

وأما الخطأ الثاني فهو أنهم ألزموا أنفسهم بما لم يلزمهم الله به ومنها على سبيل المثال تلك المسائل الفرعية الدقيقة التي تتصل بتقديم القرابين وآدابه ، إذ لم تكن مما أمرهم بها أنبياءهم ، بل كانت مما اخترعه علماءهم بناءً على محض تخرصاتهم وتفريعاتهم الفقهية ، وقد جاءهم القرآن نعمةً ربانيةً ؛ فتناول الدين الإلهي الذي تراكم عليه غبار كثيف من التحريفات والإضافات البشرية عبر القرون ، تناوله بتجديد معالمه ، وإعادته إلى

صفاته ، وأخرجهم القرآن الكريم من ظلام الجهل والأمانى الكاذبة المطبقة إلى صراط الله المستقيم .

لقد عرض القرآن عليهم تعالىمهم المشوّهة في صورها الأصلية الناصعة ، وحررهم من أسر تلك القيود الدينية التي ألزموا أنفسهم بها ، ، غير أن الذين يصرون على اتباع أهوائهم لا يزالون يهيمون ويتخبطون في ظلمات حالكة ، وأما الذين يبتغون رضا الله بشوق وإخلاص ، فإنهم سيهتدون بالقرآن إلى طريق الحق القويم ، ويوفقون لإخراج أنفسهم من دياجير الباطل إلى نور الهداية الصحيحة الصادقة .

إن الآلهة التي اتخذها البشر من دون الله ، لا أحد منها يقدر على إيجاد شيء ما أو إعدامه إن كان موجوداً ، ويكفي هذا الواقع برهاناً قاطعاً على أن لا إله إلا الله الواحد الأحد ، فالموجودات التي لا تستطيع الخلق ولا الإهلاك ، كيف يمكن أن تكون آلهة تُعبد؟!!

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ ۖ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ ۖ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٥٨﴾ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۚ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٩﴾ ﴾

فترّة: فتور وانقطاع وسكون.

إن الأمة التي تؤمن على الكتاب الإلهي ، يُبعث فيها الرسول ، يخصصها الله بنعم كثيرة وعظيمة ، شريطة أن تؤمن حق الإيمان ، وتؤدي واجبها خير أداء ، وتمثل تلك النعم في النصر على الأعداء ، والتمكين في الأرض ، والمغفرة للذنوب ، ووعد الجنة .. إلخ .

وبالنسبة للطلّاع الأولى من الأمة يكون ذلك مكافأة على عملهم الذي تكبدوا المشاق وركبوا الصعب والذلّول في إنجازهم ، وأنهم أسلموا أنفسهم إلى الله ، وقابلهم الله تعالى بوافر نعمه وبركاته .

غير أن الوضع سرعان ما ينقلب في الأجيال التالية ، فيصير الأمر عندهم أمراً قومياً محضاً ؛ فالشيء الذي قد حصله الأوائل بالعلم والجهاد يصبح عند خلفهم إرثاً قومياً ويظنون بناء على هذا أنهم صفوة الله وأحباؤه وأنهم يستحقون النعم الإلهية مهما كان سلوكهم العملي في الحياة الدنيا!!

ومن أجل إنقاذ الأمم الأمانة على الكتاب السماوي من هذا الفهم ، فقد جرت سنة الله على أن تبدأ مجازاتهم ومكافأاتهم في هذه الدنيا ، فأمثال هؤلاء يستطيعون أن يقدّروا مكانتهم عند الله من خلال النظر إلى وضعهم الفعلي في هذا العالم ، فلو كانوا غاليين على أعدائهم في الدنيا ، فيحفظون بالقبول والرضا عند الله تعالى ، ولو أن أعداءهم انتصروا عليهم ، فهم بعيدون عن رضا الله تعالى بمسافات شاسعة ؛ فإن جماعة أمانة على كتاب الله ، إذا كانت ذليلة مهانة ومغلوبة على أمرها في الدنيا ، برغم كثرتها العددية الساحقة ، فليس لها أن ترجو أنها تكون على قمة المجد والعزة في العالم الآخر !!

إنها فكرة باطلة لا أساس لها من الحقيقة ، أن تحسب أمة من الأمم أنها حبيبة الله بوصفها أمة ؛ ! لأن البشر جميعاً محاسبون عند الله أفراداً ، ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ ، فكل شخص إنما يجد عند الله ما يستحقه بناءً على عمله الذاتي ، فالجنة ليست بوطن قومي لأحد ، كما أن جهنم ليست سجناً قومياً لأحد ، والمنهج الذي يسير عليه القضاء الإلهي أنه تعالى يبعث من عنده أفراداً يقومون بإعلام البشر بحقيقة الحياة وغايتها ، وينذرونهم من عذاب جهنم ، ويبشرونهم بنعيم الجنة الأبدي ، وإنما يتمكن المرء من الوصول إلى الله ونيل رضاه باتباعه هذا المبعوث بشيراً ونذيراً من عند الله عز

وجل ، وليس بأية وسيلة أخرى .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ آذُنُكُمْ عَلَيَّ إِذْ جَعَلْتُ فِيكُمْ أُنْبِيَاءَ وَجَعَلْتُكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٥﴾ يَنْقُومِ آذُنُكُمُ الْآرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنُودُهَا حَتَّىٰ تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَغَلِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَنَنُودُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

لقد جرت سنة الله على اختيار طائفة من الطوائف البشرية لإبلاغ رسالته إلى الناس كافة ، فيبعث فيها رسله ويعطيها كتابه ويأمرها بأن تقوم بتبليغ تلك الرسالة الحقة إلى الآخرين ، فكما أن الوحي ينزل على شخص تختصه العناية الإلهية ، كذلك يتم اختصاص طائفة معينة بحملها للوحي واثباتها عليه ، وقد كان بنو إسرائيل متمتعين بهذه الخاصة في الزمن القديم ، وتم انتقالها منهم إلى الأمة الإسلامية بعد بعثة نبي آخر الزمان ﷺ .

وليس مطلوب الله منحصراً في أن تقوم طائفة بتمثيل دينه فحسب ، بل ينطوي المطلوب الإلهي على أن تحظى هذه الأمة القائمة بتمثيل دينه بأسباب العزة والغلبة في الحياة الدنيا ، حتى ينكشف للناس على صعيد الواقع المعاش أن العالم الجديد والأبدي الذي سيكون بعد قيام الساعة ، ستكون كل أنواع السعادة ومظاهر المجد والعظمة هناك خالصة لأهل الحق وحدهم ، وأما الباقون سواهم فسيطردهم بعيداً عن رحمة الله أذلاء مغلوبين على أمرهم .

غير أن هذا الإنعام الديني لا يُعطى لهذه الطائفة جزافاً ، فلا بد لها من اجتياز امتحان الجدارة والاستحقاق ، حيث يتحتم عليها أن تثبت عملياً أنها وثيقة الصلة بالله ، قوية الاعتماد عليه على كل حالٍ من الأحوال ، وأنها مستمسكة بمرضاة الله دائماً صابرة على جميع المصائب والمحن التي تلقاها على طول الخط .

ولقد قبض الله الغلبة والانتصار على كل الشعوب المعادية لهم ، مادام بنو إسرائيل ثابتين على هذا المستوى الديني ، وقد أتى عليهم حين من الدهر تبوءوا فيه مكان الصدارة بين أمم الأرض المتحضرة المعاصرة لهم جمعاء ، ولكن عندما بُعث سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - كان التدهور والانحطاط قد بلغ منهم كل مبلغ ، فلم يعد لهم رصيد من الصبر والاعتماد على الله ما يبعثهم على مواجهة الأعداء ، والصمود في وجه الشدائد ، وقد أخذت طائفة منهم تتمرد على الله ورسوله وتستهزئ بهما بكل وقاحة وجرأة ، ووصل الأمر إلى أن استقر في قلوبهم الرعب والخوف من شعوب الأرض القوية أشد وأكثر من خوفهم من الله عز وجل !!

وإن طائفةً ابتعثها الله لتمثيل دينه ، حين تتقاعس عن الكفاح والتضحية من أجل المهمة الإلهية ، فتريد أن ينزل الله بنفسه إلى الأرض ، ويتولى بنفسه مؤونة الكفاح وإنجاز المهام المتصلة بدينه ، سواء أكانت تلك الطائفة المتقاعسة قد أيدت مشيئتها هذه بلسانها كشأن مجموعة أفراد من بني إسرائيل ، أم أعلنت بعملها ولسان حالها دون مقالها كشأن الأمم الأخرى !!

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾
 ﴿١٦﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٧﴾

فافرق: فافصل بحكمك.

يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ: يسرون فيها متحيرين ضالين.

فَلَا تَأْسَ: فلا تحزن.

لقد كانت بلاد الشام وفلسطين يحكمها شعب قوي جبار يُدعى العماليق ، في الزمن الذي خرج فيه بنو إسرائيل من أرض مصر تحت قيادة نبيهم موسى - عليه الصلاة والسلام - ووصلوا إلى صحراء سيناء ، وخاطبهم الله: إن هؤلاء الطغاة الجبابرة قد استوفوا حظوظهم من الحياة كلها ، وأوشكت آجالهم المحددة على الانتهاء ، فلتدخلوا ديارهم ، وسيكون التوفيق والنصر الإلهي حليفكم ، وبالتالي ستتغلبون عليهم بعد مقاومة عادية تكون الحاسمة ، غير أن الخوف من هذا الشعب - العماليق - كان قد بلغ من الهيمنة على نفوس بني إسرائيل إلى حد أنهم رفضوا معه الدخول إلى بلادهم ماداموا فيها ، مما كان يدل دلالة واضحة على أنهم يخافون من البشر أكثر وأشد من خوفهم من الله ، ومن ثم فلم يعد لوجودهم وزن ولا قيمة عند الله تعالى ، فصدر القرار الإلهي بأنهم سيظلون تائهين في الصحراء الممتدة بين جبل فاران وشرقي الأردن لمدة أربعين سنة (وهي من ١٤٤٠ إلى ١٤٠٠ قبل الميلاد) ، حتى يهلك منهم كل أولئك الذين تزيد أعمارهم عن عشرين سنة فصاعداً ، وفي أثناء ذلك سينشأ ويتربع جيلهم الجديد في ظروف وبيئة جديدة مختلفة عن جيلهم السابق كل الاختلاف !!

وقد تحقق القرار الإلهي في أجله المحدد ، فلم يبق خلال حياة الأربعين سنة الصحراوية أحد من المتقدمين في السن منهم ، وقام جيلهم الجديد المتدفق حماساً وفتوة من بعد ذلك بفتح بلاد الشام وفلسطين تحت قيادة «يوشع بن نون» ، وهو أحد الرجلين الصالحين اللذين أخبرت الآية السابقة بأنهما نصحا بني إسرائيل بأن يقتحموا ديار العمالقة متوكلين على الله وحده!

ومن جملة الأعذار التي تقدم بها بنو إسرائيل إلى سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - للنكول عن قتال العماليق أنهم أولو بأمس شديد ، لا طاقة لنا بهم ، وأننا لو

حملنا على بلادهم لن نعود إلا بالهزيمة النكراء ، وبعدئذٍ «سيقع أولادنا أسارى في أيدي أولئك الجبابرة»، ولكن شهد التاريخ أن هؤلاء «الأولاد» أنفسهم ، ما إن بلغوا مبلغ الرجال حتى دخلوا بلاد العماليق فاتحين ، وانتزعوا مقاليد سلطتها وخزائنها من أيديهم!!

ولم تتولد هذه القوة الهائلة في سواعد الأولاد إلا نتيجة لمقاساتهم شدائد الحياة الصحراوية واحتمال مشقاتها لفترة من الزمن ، إن الظروف الصعبة الخطيرة التي كان قد تبرم بها الآباء ، وكانوا يحسونها نذراً للموت والفناء في حق أبنائهم ، كانت المواجهة الجريئة لتلك الظروف الصعبة الخطيرة ذاتها تنطوي على سر الحياة والازدهار لأبنائهم!!

إن أكثرنا يحلو له العيش في الظروف المواتية ، والبيئة الهادئة الخالية من الصعاب والعقبات ، ولكن الحقيقة أن مواهب المرء لا تتفتح ، ولا تتولد فيه المزايا والصفات الجميلة كلها إلا إذا اضطر إلى أن يعيش حياة تتطلب كفاحاً مستمراً لا ينقطع مع الظروف والأوضاع الخارجية ، فقد ظل بنو إسرائيل يعيشون بمصر حياة ملؤها الدعة والاستقرار قروناً طوالاً ، مما جعل منهم شعباً خامداً هامداً ، إلا أن الحياة الصحراوية التي استقبلتهم عقب الخروج من مصر ، كانت كلها تحديات متواصلة ، إذن فكان طبيعياً أن تختلف معنويات الأطفال الذين بلغوا طور شبابهم في ظل تلك الظروف اختلافاً جذرياً عما سبقهم ، ، فإن البيئة الصحراوية خلقت فيهم الميل إلى البساطة ، وعلو الهمة والشهامة ، وحب المخاطرة والتجلبد ، والنزعة الواقعية ، وهذه السمات والمزايا هي التي تحوّل شعباً ميتاً إلى شعب يتدفق حياةً وحيويةً وحرارةً!!

وإن من سنة الله في خلقه ، أن أمة ما إذا صارت أمةً نضب معين حياتها نتيجة للحوادث والظروف ، فلا سبيل إلى إنعاشها من جديد وتحويلها ثانية إلى أمة حية إلا أن تبثلى بشتى ألوان الحوادث غير العادية.

﴿ وَآتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قُرْبَانًا: ما يتقرب به من البر إليه تعالى.

تَبُوءَ بِإِثْمِي: ترجع بإثم قتلي إذا قتلني.

وَإِثْمِكَ: السابق المانع من قبول قربانك.

على أن الجزء الأصلي على العمل الذي يعمل به المرء من أجل الله ، إنما يناله في الآخرة ، غير أن هذه الدنيا بدورها تشهد أحياناً وقائع تدل على ما إذا كان عمل المرء قد حظى بالقبول عند الله تعالى أم لا؟! وقد حدث موقف مماثل لهذا مع ابني آدم "قابيل وهابيل" ، كان قابيل يشتغل بحرث الأرض ، وكان هابيل راعي الماشية ، وقد أعطى هابيل نتائج جهوده الطيبة لله بغية التقرب منه ، وتفضل الله بقبول ذلك منه ، مما كان له أثر ملموس في زيادة حياته وعمله خيراً وبركةً ونجاحاً .

وقدّم قابيل بعض مزروعاته إلى الله ، غير أنها لم تُقبل منه ، فظل محروماً من بركة الله وعنايته ، الأمر الذي أثار في قلبه كوامن الحقد والحسد على أخيه الصغير هابيل ، وقد اشتد لبيب الحسد ضراماً إلى حد أن قابيل توعد أخاه بالقتل . فقال له هابيل : إنما السبب في عدم قبول قربانك يرجع إلى أن قلبك يخلو من مخافة الله وتقواه ، إذن فعليك أن تهتم بإصلاح نفسك بدلاً من انفجارك سخطاً وحنقاً عليّ ، إلا أن الحسد إذا ما تأججت ناره في صدر أحدٍ من الناس فلا تدعه صالحاً يستعرض نقائصه الذاتية ، ويُراجع حساب تصرفاته الخاطئة ، وإنما يستحوذ عليه ويتملك مشاعره وحواسه كلها شيء واحد ليس غير ، ألا وهو القضاء على وجود منافسه المزعوم .

وما كان جواب هابيل على تهديد قابيل إياه سوى أن قال : لئن أقدمت فعلاً على قتلي ، فإني لن أمدّ يدي لقتلك ، ومرجع ذلك إلى أن الله تعالى قد حرم الاقتتال بين المسلم وأخيه المسلم تحريماً مطلقاً .

أما إذا كان المعتدي من غير المسلمين فلا يجوز عندئذ أن يُتخذ منه هذا الموقف المسلم .

وإذا اقتتل رجلان مسلمان وحرص كل منهما على قتل صاحبه ، فإن الإثم في هذه الحالة يتوزع بين الاثنين على السواء ، وأما إذا أراد أحد المسلمين أن يعتدي على مسلم ، ولا يقابله الثاني بمثل اعتدائه ، بل يلجأ إلى الصبر والدعاء ، فإن الأول لا يحمل تبعة ذنبه ، بل ويُلقي على عاتقه تبعة الذنب الأخير الذي كان من المحتمل وقوعه فيه لو لم يتمسك بالصبر والدعاء !

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ٢٥ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ ۖ قَالَ يُنَوِّلتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوْءَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ٢٦ ﴿

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ: زينت وسهلت له نفسه .

يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ: يحفر فيها ليدفن غراباً قتله .

سَوْءَ أَخِيهِ: جيفته أو عورته .

وَيَلْتِي: كلمة جزع وتحسر .

ولقد لفت هابيل انتباه أخيه الأكبر إلى ما سوف يقع فيه ، مما جعله يستشعر بخجل وتردد في قلبه ، وأخذ يراجع موقفه فوجد أنه يريد قتل أخيه البريء بدون مبرر ولا سبب معقول ولكن جذوة الحقد والحسد المتأججة في نفسه لم تحمد ، بل أخذ شررها يتطاير حتى استبد بعقله وملك عليه أمره كله ، فلجأ إلى اختلاق ضروب من المعاذير

الواهية التي تبرر إقدامه على قتل أخيه ، وأخيراً نجح في التخلص من صراعه الداخلي بإقناع ذهنه وقلبه بتبريراته المزعومة المزورة فقتل أخاه !!

إن صوت الضمير هو صوت الله ، وإن عدم اطمئنان الضمير إلى أي عملٍ من الأعمال يضع المرء على محك الاختبار ، فإن استجاب المرء لصوت ضميره ، لأصبح من المفلحين السعداء ، وأما لو خنق صوت ضميره مستنداً إلى كلماتٍ وشعاراتٍ كاذبةٍ جوفاء فقد باء بالفشل والخسران وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال : «ما من ذنبٍ أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا ، مع ما يُدخر لصاحبه في الآخرة ، من البغي وقطيعة الرحم»، ومن ثم فلم يستحق قابيل ما سيلقاه في الآخرة من العذاب لقاء ظلمه أخاه بغير الحق فحسب ، بل وقد عُجل بالعقوبة الباعثة على الرثاء في هذه الدنيا ؛ كما رُوي عن مجاهد وابن جبير : «أنه علق ساقه بفخذه يوم قتله ، وجعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت ، عقوبةً له وتنكيلاً به»^(١).

ومشهد تعليم قابيل في سياق هذه القصة بواسطة الغراب كيف يوارى جثمان المقتول تحت الأرض يتضمن الإشارة إلى أن الإنسان دون الحيوان الأبكم فطنةً وذكاءً بالنسبة للاهتداء إلى طريق الفطرة القويم ، فلو أنه اندفع وراء عواطفه اندفاعاً أعمى فلا أحد إذن أظلم وأكثر طغياناً منه ، هذا المشهد يشير إلى أن المرء لو قام بقتل دوافع الجريمة في صدره لنجا من مرارة الندم وحرقة حيث لا ينفع الندم شيئاً ، فينبغي للمرء إذن أن يعمل على إخماد نوازع القلب في طبقات القلب ، ولا يسمح لها بأن تتحول إلى مظاهر واقعية ملموسة خارج القلب ، فإن أية نزعة شرٍ لا يتطلب دفنها في داخل القلب ، قبل ترجمتها إلى واقع عملي في العالم الخارجي إلا مجهوداً نفسياً داخلياً ، وأما لو ترجمها المرء إلى واقع محسوس في الخارج ، فإنه سيواجه بعدئذٍ مشكلة دفن «الجثة» لإنسان بريء ليس عهده بالحياة ببعيد ، والتي لا تكاد تحفى على الله اللطيف الخبير مهما

(١) مختصر تفسير ابن كثير : ص ٥٠٩.

تم دفنها ومواراتها تحت طبقات كثيفة متراكمة من التراب !

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ (٢٤) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِّنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٦)﴾

يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ: يبعدوا أو يسجنوا.

خِزْيٌ: ذل وفضيحة وعقوبة.

حين يقتل الإنسان شخصاً فإنه لا يكون بذلك قاتل إنسانٍ واحدٍ فحسب ، بل يكون بالأحرى قاتل بني الإنسان جميعاً ؛ لأنه ينتهك قانون الحرمة ، ذلك الذي ترتبط به سلامة حياة الناس كافة ارتباطاً عدم ووجود ، وكذلك حين يقوم أحد الناس بإنقاذ أحدٍ سواه من ظلم الظالم وعدوانه ، فلا يكون ذلك الشخص منقذاً للفردٍ واحدٍ فقط ، بل يكون منقذاً لأفراد البشرية ، لأنه بذلك حافظ على المبدأ القائل بكون أرواح كل البشر محترمة على حدٍ سواء ، وينبغي للمسلمين أن ينظروا إلى حادثٍ واحدٍ من هذا النوع وكأن أرواح جميع الناس وأعراضهم وأموالهم كلها مهددة بالخطر ، فليسرعوا إلى اقتلاع جذوره في مبدأ الأمر قبل أن يصبح شره مستطيراً.

إن المبدأ الذي أقام الله عليه نظام هذا الكون هو أن يؤدي كل أحدٍ ما أنيط به من الواجبات والمسئوليات ، من غير أن يتدخل في دائرة عمل الشخص الآخر بدون لزوم ، وإن كل الكائنات ، تسير على خط الفطرة دون انحراف ، ما عدا الإنسان ، الذي قد

مُنح له حرية الاختيار والتصرف بصفةٍ وقتيةٍ ، فإنه يطغى ويتجاوز حدوده ، فيحدث خللاً واضطراباً في سير النظام الفطري ، وهؤلاء الخارجون على نظام الفطرة من كبار المجرمين عند الله تعالى ، ويفوقهم جرماً وعناداً إلى حدٍ كبيرٍ جداً أولئك الذين يحاربون الله ورسوله ، يعني أنهم يزرعون العراقيل والعقبات في طريق الدعوة ويقومون بأعمال تخريبية ضدها ، تلك الدعوة التي يفجرها الله بين عباده لكي تمنعهم من الإسراف والبغي ونشر الفساد في الأرض ، وتدعوهم إلى ممارسة الحياة وفقاً لحدود الفطرة الإلهية المرسومة ، وإن المفسدين المخربين وأشباههم لهم عقوبة رادعة في هذه الدنيا ، ونيران حامية متأججة في تلك الدار الآخرة !

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ١٠٤ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتٍ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يُرِيدُونَ أَنْ تَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٧﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٨﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾

الْوَسِيلَةُ: الزلفى بفعل الطاعات وترك المعاصي.

نَكَالًا: عقوبة تمنع من العود.

إن القرب من الله عز وجل أعظم وأغلى أمانى العبد المؤمن ، ومع أن القرب الإلهي لا يمكن الظفر به بشكله المحسوس والكامل إلا في الآخرة ، غير أن عمل عبده حين يتسبب في تقريبه من الله ؛ لمصادفته القبول والرضا لدى ربه ؛ فإنه يجرب هذا القرب في

هذه الدنيا بالذات بشكل كيفية وجدانية لطيفة ؛ وذريعة الوصول إلى هذا القرب هي التقوى والجهاد، يعني عبادة الله وطاعته الدائمة على مستوى الخوف من الله ، والكفاح المتواصل في سبيله !

وقد يمر المرء في حياته بلمحات يجد فيها نفسه واقفاً بين الحق والباطل ، ويكون التقدم نحو الحق باعثاً على تحطّم أنانيته ، مؤدياً إلى تشتت شمل مصالحه الدنيوية ، بينما يضمن الاتجاه نحو طريق الباطل ، ألا تزال أنانيته منتصبة القائمة ، مرفوعة الرأس ، وأن تظل مصالحه المادية محفوظة من أي خطر يهددها ، إن خوف المرء في موقف كهذا من الله - عز وجل - واستمساكه بالله مع التخلي عن المصالح الأخرى جملةً واحدةً ، ومواصلة السير قدماً على درب الحق ، بالرغم من كل المكارهِ والعقبات المزروعة على طول الخط ، مما يقربه من الله - سبحانه وتعالى - ، وفي اللحظة ذاتها ينعم المرء بتجربة دنيوية عاجلة لهذا القرب الإلهي على مستوى الحس في شكل كيفية لطيفة سامية !!

وأما الشخص الذي يرفض - على عكس الأول - السير على طريق التقوى والجهاد فإنه قد اتجه نحو الكفر والجحود بالله ؛ مما يورطه في عذابٍ مقيم دائم ، نتيجة انقطاع صلته بالله وابتعاده عن كنفه ، ولن يسعه أبداً أن يجد إلى التخلص منه سبيلاً !!

إن أمر الجزاء كله بيد الله الواحد الأحد ، وهو الذي سيحدد مصائر الجميع على حسب ما تقتضيه حكمته البالغة وقدرته الشاملة ، فليس هناك ما يدعو إلى اليأس أو التشاؤم المطلق بأن ما قد سبق صدوره من سيئات الأعمال لن يبرح عالقاً بصاحبه دون أن يزيله ، حتى لو أقلع عن ذلك كله فعلاً ، وأصلح نفسه وغير مجرى حياته العملية فيما بعد ، وليس ثمة ما يبعث على التفاؤل أو الاعتقاد الجميل القائل بكون أية قوةٍ أخرى تستطيع تغيير عاقبة بعض الناس بهاها من حق الشفاعة أو صلاحية التدخل في القضاء الإلهي المحتوم ! كلا ، بل الأمر بكلّيته راجع إلى مشيئة الله العليا وحدها !!

والعقوبات التي شرعها الإسلام بشأن الجرائم الاجتماعية ترمي إلى غرضين

رئيسين: أحدهما مجازاة المجرم على جريمته ، والثاني أن يتم تثبيط المجرمين الآخرين ؛ لأنهم لن يندفعوا إلى ارتكاب الجريمة نظراً لما لقيه أحدهم من عقوبة ((رادعة)) ، بيد أن المجرم لو شعر بالندم على ما فعل ، فتضرع إلى الله طالباً عفوه والمغفرة لذنوبه ، مصمماً على عدم العودة إلى سيرته السيئة المنحرفة السابقة في حياته المقبلة ، فالمأمول أن الله سيعفو عنه في العالم الآخر ؛ لأنه تعالى هو الغفور الرحيم.

﴿ يَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا تَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١٠ ﴾

سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ: يسمعون كلامك فيمسخونه ليكذبوا عليك فيه.

سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ: يسمعون كلامك للتجسس لقوم آخرين.

يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ: يبدلونه أو يؤولونه بالباطل.

فِتْنَتَهُ: ضلّالته وكفره وإهلاكه.

خِزْيٌ: افتضاح وذل.

كان في المدينة صنفان من الناس ، يعملان على معارضة الدعوة الإسلامية وعرقلتها، هما: المنافقون واليهود ، أما المنافقون فهم أولئك الذين اندسوا في صفوف المسلمين متظاهرين بالانتماء الشكلي أو الاسمي إلى الإسلام ، دون أن يقبلوه من صميم قلوبهم بصدق وإخلاص ؛ لأن دعوة الإسلام الحق كانت تمثل الضربة القاضية

على أغراضهم ومنافعهم الذاتية وأما اليهود فكانوا المترعين على مناصب التمثيل الديني، ومن ثم يخيّل إليهم أن الدعوة الإسلامية، إنما جاءت تتوخى نزع الرياسة الدينية من أيديهم، وخلعهم عن كل الامتيازات ومظاهر الشرف والعظمة التي ظلوا متمتعين بها منذ قرون!!.

وكان طبعياً أن يتواطأ هذان الصنفان كلاهما من أجل القيام بشن الهجوم المعاكس على الإسلام مع بعضهما؛ لأن الإسلام في نظرهما عدو مشترك لكليهما، وبما أن أشرفهم كانوا يستنكفون من الحضور بأنفسهم في مجلس رسول الله ﷺ باعتبار ذلك أمراً لا يليق بشأنهم، لذا فكان أتباعهم هم المأمورون بأن يستمعوا إلى ما يدور بمجالس الرسول من حوارٍ أو حديث، فيقوموا بإنهاء ذلك كله إلى أشرفهم، ثم يتناول السادة كل ما يُوصل إليهم بتحميله المعاني العكسية، حتى يشوهوا سمعة صاحب الرسالة ودعوته بين الناس، وقد بلغ منهم العناد والطغيان مبلغاً لم يعودوا معه يتورعون عن تحريف كلام الله عن مواضعه وسياقاته الحقيقة، لكي يستنتجوا منه مفاهيم وآراء مزعومة تُخدم أغراضهم وورغائبهم الدنيئة!

هؤلاء أناس لا يُخضعون أنفسهم لأوامر الله ورسوله إخضاعاً مطلقاً، بل يُخضعون أوامر الله ورسوله لميولهم ونزعاتهم الذاتية، ولا يأخذون من تلك إلا ما يتفق مع هذه، والعكس بالعكس، إن هذا الاتجاه أخطر فتنة يبتلى بها أحد الناس، فكلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا الذين يفضّلون دوماً جانب المنفعة والمصلحة على جانب الحق، والذين يودّون أن تكون مقاعد الكبرياء والسؤدد محجوزة لهم دون غيرهم على كل حال من الأحوال، والذين يدبرون مكائد وخططاً تخريبية ضد مسيرة الحق، حتى ولو تناولوا الكلام الإلهي بالتحريف والتبديل لتبرير أعمالهم الهدامة، فإن الأمر ينتهي بهؤلاء وأمثاهم في نهاية المطاف إلى الحرمان الكلي من الاستعداد لقبول الحق، إنهم قطعوا علاقتهم بالله، فإن الله أيضاً قابلهم بالتخلي عنهم، ونتيجة حرمانهم من توفيق الله وتسديده لا يبرح أمثال هؤلاء غارقين في أمورٍ باطلةٍ وأشغالٍ تافهةٍ لا طائل تحتها، إلى

أَنْ يُسَاقُوا آخِرًا إِلَى عَالَمِ النَّارِ!!.

وإن عبد الله الذي يكون قد رشح نفسه للاضطلاع بمهمة البلاغ والدعوة إلى دين الله الحق ، فلا ينبغي أن تحور عزيمة ، أو يتسرب الضعف إلى همته ؛ نظراً لكثرة المعارضين وشدة معاكساتهم ؛ لأن النشاطات المعادية التي يمارسها هؤلاء الناس فاشلة دائماً ، ولن تُكلل بنجاح ، لأنها ليست ضد شخصية الداعي ، بل ضد الله - عز وجل ! ، ومن ذا سيحالفه النجاح في مواجهة الله يا ترى !! ، وغاية ما يطلبه الله تعالى من عملية الدعوة أن يتم إعلام الناس بجوهر الحقيقة على أفضل وجه ، وإلى أقصى حد ممكن ، وتلك غاية لا بد أن تتحقق بفضل الله وعونه عاجلاً أو آجلاً!

﴿ سَمْعُونََ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّخْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [١٦] وَكَيْفَ تُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١٧]

أَكَالُونَ لِلْسُّخْتِ: للمال الحرام. وأفحشه الرشا.

بِالْقِسْطِ: بالعدل ، وهو حكم الإسلام.

الْمُقْسِطِينَ: العادلين فيما ولوا وحكموا فيه.

يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ: يعرضون عن حكمك الموافق للتوراة.

المراد بالسُّخْتِ الرشوة ومن صور الرشوة المعتادة الشائعة ، ما يتم تبادل بين الآخذ والمعطي ؛ من غير لجوء إلى التمويه أو تسمية الشيء بغير اسمه ، ولقد كانت هذه الصورة من الرشوة متفشية بين عددٍ من طبقة العلماء اليهود ، الذين كانوا يعلمون الناس مسائل وأحكاماً خاطئة مقابل تعويضات مادية معينة .

غير أن هناك شكلاً آخر من الرشوة؛ وبالرغم من كونه لا يتم فيه تبادل الأخذ والعطاء بين الطرفين على نحو مباشر ومكشوف، ولكنه أعظم أنواع الرشا وأشنعها على الإطلاق، وذلك أن يُعرض الدين الإلهي بعد صياغته وفقاً لاتجاهات العوام ورغباتهم؛ بغية الحصول على صيت ذائع، وسمعة عريضة، وكسب احترام الشعب وحفاوته البالغة، واستدرااراً لتبرعات الناس وهباتهم ونذورهم بصفة منتظمة دون انقطاع !!

إن تقديم الدين في صورته الخالصة النقية من كل شوب، يكون دوماً على حساب أن يفقد المرء كل اعتبار ونفوذ وحفاوة بين الناس، وعلى العكس من ذلك فلو تمّ عرض الدين بشكلٍ يتيح للمرء فرصة الانخراط في سلك التدين والمتدينين، من غير أن يُلزمه بإحداث أي تغيير فعلي في حياته العملية، فليسرعان ما يُقبل الجماهير على هذا الدين من كل صوب ويتجمع حوله جموع غفيرة من سائر طبقاتهم !!

فالدين الذي يضمن الوصول إلى الجنة بواسطة مجموعة من الأعمال الشكلية التافهة وبدون تأكيد على ضرورة تغيير مسار الحياة المادية البحتة، والدين الذي يُضفي على المعارك القومية والصراعات الدنيوية طابعاً دينياً، والدين الذي تتوفر فيه إمكانية أن يتم تسجيل أعمال المرء وتصرفاته كلها في خانة التدين؛ حتى ولو كان نشاطه من أجل الحصول على الوجهة الدنيوية وتحقيق المنافع الذاتية لا غير، إن المبشرين بهذا النوع من الدين طالما يحظون بنفوذٍ واسعٍ ومكانة مرموقة بين أوساط الجهلة والعوام بين عشية وضحاها !!

وزعماء اليهود قد صاروا مرجع السواد الأعظم من خلال ترويجهم لهذا النوع من الدين، وكانوا يعرضون على العوام «ديناً محبباً» أو «مفضلاً» لديهم، فلا غرو أن كان العوام بدورهم يقابلونهم بتقديم المعونات المالية إليهم، إلى جانب إحاطتهم بهالة من التجلة والإكرام !!

وفي هذا الوضع كان من الطبيعي أن تشتد عليهم وطأة الدعوة إلى الدين الحق، التي

دعا إليها رسول الله ﷺ في الجزيرة العربية ، لأن ذلك بمثابة تحطيم لبنیان منافعهم ، ممّا ملأهم بغضاً ومكابرةً وحقدًا على النبي ﷺ إلى حدٍ لم يعد معه أى خبر جميل يتصل بذاته - عليه الصلاة والسلام - يروقهم ، أو يظفر بشيء من اهتمامهم ، ولو أنهم سمعوا عنه مرةً أي خبر غير جميل ، يتناولونه بالنشر الفوري بين الناس ، مع الإضافة إليه من عند أنفسهم ما يزيده سوءاً ، ويجعله أكثر إثارة لمشاعر الاستياء والتقرّز في النفوس !!

والذين بلغوا إلى هذا الدرك من الفساد والانحطاط والتدني ، يتحاكمون بعدئذ إلى حكم أو مصدر ديني بدافع اتباع الحق والعدل ، بل رجاء أن الحكم سيصدر وفقاً لأهوائهم ، وأما إذا لم يتحقق هذا الرجاء ، فلا شيء يمنعهم من رفض الحكم الصادر رفضاً باتاً ، رغم كونهم عارفين بأنه حكم الله ورسوله ! ويغيب عنهم أن موقفهم لا يعني محض رفض وإنكار لحكم من الأحكام الدينية وحده ، بل إنكار للإيمان والإسلام !

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ تَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّاسِخُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا أَنْ تَسْخَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ٥٠ ﴾ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ٥١ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٥٢ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ عَٰثِرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ٥٣ وَلَيَحْكُمَنَّ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ٥٤ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٥٥ ﴾

أَسْلَمُوا: انقادوا لحكم ربهم في التوراة .

وَالرَّبَّائِيُونَ: عباد اليهود، أو العلماء الفقهاء.

وَالْأَحْبَارُ: علماء اليهود.

وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم: اتبعنا على آثار النبيين.

إن كتاب الله إنما يُنزل من أجل أن يهدي البشر جميعاً إلى طريق فلاحهم ، ويخرجهم من ظلام العبودية للشهوات الباطلة إلى نور العبودية للحق ، فالذين يخافون الله ، ينظرون إلى كتاب الله على أنه عهد مقدس بين العبد وربّه ، فيبدلون قصاراهم للوفاء بحقه ؛ إن كتاب الله ترجمان لقضاء الله وإرادته في حق العباد ، إذن فالضرورة تقتضي أن يعالج العباد كل شئونها ومعاملاتهم في الحياة في ضوء توجهاته ، وأن يتخذوا من أحكامه وتعليماته أساساً لفصل الخصومات والمنازعات الناشئة بينهم ، أما إذا لم يُعطَ لكتاب الله هذا الاعتبار، بل يبعد عن ميدان الحياة العملية ، وظلت جميع الأمور والمعاملات خاضعة لرغبات الأفراد الشخصية ، ومصالحهم الدنيوية ، فسيكون ذلك بمثابة إنكار الكتاب الإلهي ورفضه ؛ مهما بالغ الناس في تقديره واحترامه الظاهري على وجه التبرك!!

والذين يصفون أنفسهم بأنهم «مسلمون» ، ثم لا يحكمّون كتاب الله في أمور حياتهم وقضاياها الفردية والاجتماعية كلها ، رغام تمتعهم بكامل الحرية والاختيار ، بل لا يزالون يتبعون شريعة الأهواء والرغبات ، فإنهم إذن عند الله «كافرون» و«ظالمون» و«فاسقون» أي منكرون لحاكمية الله وسلطته العليا ، ومضيعون للحقوق والذمم ، وخارجون عن عهد الانقياد والطاعة لله ، فإن تقاعس المرء عن تطبيق أحكام الشريعة الإلهية تطبيقاً عملياً، وإهماله إياها عن عمدٍ ودرايةٍ ، يجعل وجوده هيناً على الله ، بحيث لا يبقى له قيمة في نظره تعالى !

أما فيما يتعلق بالقصاص ، فإن الشريعة تقتضي أن يتم تنفيذه ، من غير نظرٍ إلى مكانة

الجاني أو اكتراثٍ لمركزه الاجتماعي كائناً من كان ، إلا أن العدوان ، قد يرجع سببه في بعض الأحيان إلى دافعٍ وقتي، وليس إلى كون صاحبه شريراً عدوانياً بطبعه ، وفي حالة كهذه ، لو عفا المجروح عن الجارح طوعياً ، فسيكون ذلك صدقةً منه على هذا الأخير ، كما يكون ذلك أيضاً باعثاً قوياً على سيادة معاني الجود والتسامح والتراحم في المجتمع .

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝﴾

وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ: رقيباً وشاهداً على ما سبقه.

عَمَّا جَاءَكَ: عادلاً عما جاءك.

شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا: شريعة وطريقاً واضحاً في الدين.

لِيَبْلُوَكُمْ: ليختبركم وهو أعلم بأمركم.

إن المراد من «الكتاب» هنا هو أصول الدين وتعاليمه الأساسية ، وليس «كتاب الله» هذا - بوصفه أصل الدين وأساسه - إلا كتاباً واحداً ، وقد أنزل هذا الكتاب الواحد على جميع الأنبياء بدون استثناءٍ مع اختلافٍ في اللغة والأسلوب ، وتباين في الترتيب أو النسق الذي جرى عليه التنزيل .

على أن القالب أو الهيكل الظاهري الذي تتجسد فيه حقيقة الدين لم يكن دائماً من نوعٍ وحجمٍ واحدٍ ، بل ما زال يختلف من نبي إلى آخر ، وليس السبب وراء هذا الفارق أن الدين قد جرى نزوله على نسقٍ تطوري أو تقدمي ، يعني أن الدين الذي تم إنزاله أول الأمر كان ديناً ناقصاً وأقل تقدماً ، ثم أخذ يتطور ويتكامل على تعاقب العصور ،

حتى نزل آخر الأمر في صورة دين أكمل وأشمل وأكثر تقدماً، إنما السبب وراء هذا الفارق يكمن في حكمة الابتلاء الإلهي، وليس في حكمة التطور الديني مجارةً للارتقاء البشري، كما ذهب إليه المفسرون عموماً، ولا سيما المحدثين منهم في تعليل هذه الظاهرة، فقد أشار الله - عز وجل - بنفسه إشارة واضحة إلى أن الغاية المتوخاة من وجود الفرق بين شرائع الأنبياء هي اختبار الناس لا غير، حيث قال جل شأنه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتَانَكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

إن آفة التدين منذ القدم، أن حقيقة الدين الجوهرية لا تلبث أن تضع وتتلشى على مرّ الأيام، بينما تكتسب الظواهر والأشكال أهمية وقداًسة كأنها الأصل المطلوب لذاته، فيظن الناس أن العبادة ليست سوى تكرارٍ رتيبٍ لهيكل معينٍ وفق شروطٍ وآدابٍ ظاهريةٍ خاصةٍ، ومن أجل إصلاح هذا الاتجاه الخاطئ، فقد تُنَوَّل الهيكل الظاهري للدين بالتغيير والتبديل مرةً بعد أخرى، حتى لا يعود الهيكل ينظر إليه على أنه هو الهدف المقصود لذاته، وبالتالي تتركز الاهتمامات والتوجهات كلها على الله تعالى وحده، إذ لا شيء سواه يصلح أن يكون مقصود البشر، ومثال ذلك تحويل القبلة.

ومع أنه لم يعد الآن أي احتمال لحدوث تغيير من هذا النوع؛ لأن النبي هو الذي يقوم بتغيير الهيكل؛ ولا نبي بعد ختم النبوة - على صاحبها صلوات الله وسلامه - ولكن المطلوب الأصلي من العباد مازال قائماً كما هو، إذ لا ولن يُعتبر عند الله عابداً صادقاً له، إلا الذي يعبد الله متحرراً من أسر المظاهر والرسوم الشكلية، والذي لا يرفعه إلى مستوى الهدف المقصود لذاته، وقد كان هذا الغرض يتحقق من ذي قبل عبر تحطيم الهيكل الظاهري، أو استبداله بهيكل آخر جديد، أما الآن فلا سبيل إلى تحقيقه إلا العمل الدائم على تحطيم الجمود الفكري، والسهر المقصود على تنقية التصورات الدينية الجوهرية من الشوائب!!

وما هذه الخلافات والمناقشات الحادة التي تُثار حول ظواهر الدين وفروعه إلا

نتيجة حتمية لغفلة الناس وذهولهم عن جوهر الحقيقة ، وإنه لا تلبث كل هذه الخلافات أن تنتهي فيما لو أدرك الناس الحقيقة على الشكل الذي ستخذه في العالم الآخر.

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٢٨﴾ أَفَحُكْمَ الْجَنَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٩﴾﴾

أَنْ يَفْتِنُوكَ: يصرفوك ويصدوك بكيدهم.

ليس القرآن وما سبقه من الصحف السماوية كتباً متغايرة مستقلة بعضها عن بعض، إنما هي نسخ أو طبعات مختلفة لكتابٍ إلهي واحد، لا غير، والتي أُطلق عليها «الكتاب» في الآية السابقة.

إن كل الكتب التي نزلت من عند الله ، على اختلاف لغاتها والعصور التي نزلت فيها، كانت تحتوي أساساً على مضامين مشتركة مماثلة بعضها لبعض إلا أن حملة الكتب السابقة لم يتمكنوا من الاحتفاظ بها ، في صورها الأصلية الناصعة فيما بعد مما اقتضى أن أنزل الله تعالى أخيراً القرآن الكريم ، بوصفه «كتاباً مهيمناً» على ما سبقه من الكتب ، فالقرآن هو الطبعة المعتمدة - الموثوق بها - لكتاب الله الواحد ، وهو بذلك يقوم محكاً أو معياراً للمعرفة عن الكتب السابقة وما لا يزال - الآن - محتفظاً بهيته الأصلية الأولى عن بقايا الكتب السابقة ، التي عبثت بها أيدي التحريف والتزييف ، فلم تعد كما كان في أول عهدها.

ومع أن سنة الله - المتمثلة في إمهال أعداء الحق لتحقيق نواياهم المشؤومة - تضع دعاة الحق موضع اختبارٍ شاقٍ عسيرٍ للغاية ، إلا أنها العملية التي يتم من خلالها التمييز

الفعلي بين الذين هم أهل للجنة، والذين هم أصحاب السعير!!

إن ضعف الإنسان يكمن في ولعه بالانسياق وراء رغباته الذاتية ، وهو بذلك ، كثيراً ما يستثقل أن يعيش ملتزماً بحدود الله ، حتى إنه قد يتناول الدين الإلهي بتفسيره تفسيراً مزعوماً ليتواءم مع أهوائه ونزعاته الشخصية !، فلن يقبل الدين الخالص إذن.

إن كلام الله أصوب الحديث وأصدق ، غير أن هذا العالم عالم اختبارٍ وابتلاءٍ ، فلا يوجد صدق إلا وهو مقنع بغلاف من الريب ، وامتحان المرء أن يؤمن بالصدق ممزقاً غلاف الريب ذاك من على وجهه، أي أنه مطالب بأن يشاهد عالم الغيب المستور في هذا العالم المنظور ذاته ، والفاشل في هذا الامتحان هو الذي لم يرتفع بنفسه إلى هذا المستوى ، وظل متورطاً في الشبهات الظاهرية ، أما الشخص الذي أدرك الصدق ، عبر ما يحيط به من غبار الشبهات الظاهرية فهو الفائز بالنجاح حقاً.

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَكَّلْهُمْ مَنَكُم مِّنْهُمُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ خَشِيَ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدِيمِينَ ﴿٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْتَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَعُكْمٌ حَيِّطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِرِينَ ﴾ ﴿٣﴾

أَوْلِيَاءُ: تَوَاخُونَهُمْ وَتَسْتَنْصِرُونَهُمْ.

تُصِيبُنَا دَائِرَةٌ: يَدُورُ عَلَيْنَا الدَّهْرُ بِنَوَائِهِ.

بِالْفَتْحِ: بِالنَّصْرِ لِرَسُولِهِ ﷺ .

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ: مُجْتَهِدِينَ فِي الْحَلْفِ بِأَغْلَظِهَا وَأَوْكَدِهَا.

حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ: بطلت وضاعت.

لم تكن شوكة الإسلام قد تمكنت بعدُ بالجزيرة العربية ، ولا كان المسلمون قد استقروا في أقطارها بعدُ ، على حالٍ كذلك ، وزدَّ على هذا أن معارضيهم كانوا يبذلون جهوداً مكثفةً دائبةً لقمعهم واستئصال شأفتهم ليل نهار ، هذا من جهةٍ ، ومن جهةٍ أخرى كانت القبائل اليهودية والنصرانية في الجزيرة تتمتع بنفوذٍ واسعٍ ومكانةٍ عظيمةٍ لدى الناس ، لما كان لها من تاريخٍ مجيدٍ يمتد إلى مئات السنين الماضية ، إلى جانب سيطرتها على معظم وسائل الاقتصاد وموارد المعيشة في البلاد دون منازعٍ ، مما جعل عامة الناس يرون من المستبعد أن قوةً كهذه يمكن التغلب عليها أو اقتلاع جذورها العميقة من البلاد كما خلق ذلك أيضاً اليأس في نفوس ضعفاء الإيمان في صفوف المسلمين من مستقبل الدعوة الإسلامية ، فكانوا يتحاشون أن يُسهموا في نشر الإسلام على نحوٍ يتسبب في دفع اليهود والنصارى إلى معاداتهم ، فلا بد إذن من استبقاء مودتهم ، عسى أن يسفر هذا الصراع عن هزيمة المسلمين وانكسارهم - فيتعرضوا لإجراءات انتقامية تعسفية من قبل اليهود والنصارى المتصرين القاهرين !!

ومن المدهش حقاً أن هؤلاء في محاولتهم تلك للوقاية من خطر المستقبل الوهمي قد أوقعوا أنفسهم في خطر الساعة الأكيد ، ألا هو ولاؤهم المزدوج الذي مارسوه توسلاً به لكسب الثقة عند معارضي الإسلام ، والذي جرَّ عليهم الشقاء والخسارة الأبدية من حيث أرادوا به نيل الربح والسعادة !

إن الشخص الذي ينضوي تحت راية الحق يستمر ، مادامت الأمور سهلة المأخذ ، مأمونة العاقبة ، ثم لا يلبث أن ينضم إلى جبهة الباطل ، ويقلب لأهل الحق ظهر المجن ، في حالة ما إذا كانت النتائج تبدو مخيفةً أو غير مضمونة ، ولن يُحشر عند الله تعالى إلا مع الذين وقف إلى جانبهم في مواقع الخطر والخوف !!

وإن من أخطر المواقف التي يمر بها أحد في حياته ، الموقف الذي يفرض عليه نوعاً

من التضحية كثر من لا بد منه للبقاء على الإسلام ، فإن هذه المواقف إنما تأتي لتؤكد صدق إسلام المرء أو ترفضه وتكشف عن زيفه ، والله - سبحانه وتعالى - يريد للمرء أن يثبت إسلامه في تلك المناسبات ، التي تتطلب كبت العواطف المنبعثة أو تعرض حياته وماله لخطر محقق ، تماماً ، كما كان يثبت إسلامه ذاك في ظروف الأمن والدعة والاستقرار ، وبعد تمام اجتيازه هذه الامتحان بنجاح فقط ، يصلح المرء ليسجله ربه ضمن عباده الأوفياء المخلصين له الدين كله ، إن إثبات الولاء للإسلام في هذه المواقف هو الذي يكسب سوابق أعمال شخص ما قيمة ووزناً حقيقيين ، وأما إذا لم يتمكن من إثبات ولائه للإسلام في هذه المواقف الحاسمة ، فمعنى ذلك أنه قد أحبط أعماله السابقة كلها إحباطاً ، بحيث لم تعد لها أية قيمة ولا وزن عند الله - جل وعلا !

إن كل اختبار في هذه الدنيا هو اختبار لقوة الإرادة أولاً وآخرها وما على المرء إلا أن يثبت إرادته ؛ فيقدم أولى خطواته نحو الله ، وإنه حين إن يفعل ذلك يفاجأ بصيرورة النصر الإلهي حليفه على الفور ، وأما الشخص الذي لم يثبت إرادته ، فلم يتقدم بأولى خطواته نحو الله ، فهو عند الله ظالم ، وليس الله بممدّ الظالمين بتوفيقه ونصرته من طرف واحد .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ۖ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكُمْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٧﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۖ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿١٠٨﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٠٩﴾

أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ : عاطفين عليهم رحماء .

أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ : أشداء عليهم غلظاء .

لَوْمَةً لَا يُنِمُّ: اعتراض معترض في نصرهم الدين.

وَاللَّهُ وَاسِعٌ: كثير الفضل والجود.

إن الشخص الذي يرفض الوفاء بمقتضيات الإيمان ، بعد دخوله في دائرة الإيمان ، هو عند الله من الذين قد ارتدوا عن الدين ، وإنما المؤمنون الصادقون عند الله هم الذين يتوغل الإيمان في أعماق قلوبهم فيغمر كيانه بمحبة الله ، ويزيدهم حرصاً على تحقيق الأهداف الإسلامية ، فلا تنطوي صدورهم لإخوانهم المجاهدين من أجل الإسلام على شيء غير اللين والرأفة والمواساة، ويصل عطفهم وإشفاقهم على جماعة المسلمين إلى حد لا تُستخدم معه طاقاتهم وصلاتهم أبداً فيما يؤدي إلى الإضرار بالجماعة المسلمة أو يتهدد مصالحها، وأن تبلغ صرامتهم وتصلبهم في أمر الدين مبلغاً يقيهم من التأثير بأفكار غير المسلمين ونشاطاتهم كلها ، وأن تصير عواطفهم كلها خاضعة للمبدأ على نحو يجعل منهم أرق من النسيم وألين من أوراق الورد ، إذا تعاملوا مع إخوانهم المسلمين ، وأغلظ وأقسى من الصخور الصماء في مواجهة غير المسلمين ، حتى لا يوجد طامع من غير المسلمين في سبيل استغلالهم للوصول إلى غاياته ومآربه المشبوهة .

والحياة الإسلامية حياة هادفة ، وملؤها الكفاح والمشقة والعناء ، ورسالة المسلم أن يقوم بإبلاغ دين الله إلى عباد الله أجمعين ، وأن يبذل قصاره لتحويل اتجاه البشرية الضالة المنحرفة من طريق جهنم إلى طريق الجنة ، ولذلك يواجه المؤمن القائم به ألواناً شتى من المشاكل والصعوبات ، ويلقى ضرباً لا تحصى من الملامة واللائمين ، حتى يظهر إلى الوجود فئتان مستقلتان إحداهما عن الأخرى ، في المبدأ والغاية : فئة رجال الدنيا ، وفئة المسافرين إلى الآخرة ، وتأخذ هاتان الفئتان في صراع عنيف دائم لا يبلغ نهايته أو تهدأ حدته ، وامتحان المؤمن أن يمر بكل المواقف والمحطات على طريق رحلته الإيمانية الطويلة ، كإنسان زاد سفره الثقة بالله والاعتماد عليه وحده ، لا غير ، فيواصل مسيرته من غير كللٍ أو مللٍ وغير آبهٍ لأحدٍ سوى مرضاة الله تعالى ، حتى يصل أخيراً

إلى ربه عبر بوابة الموت!

وإنه إذا بلغ تعداد الأفراد من هذه النوعية في مكانٍ ما إلى عددٍ ملحوظٍ ، فُيَضُّ لأنفسهم الغلبة على الأرض والتمكين فيها كذلك ، وهؤلاء أناس يهتمون بإقامة الصلاة أبلغ الاهتمام ، يعني أن يصبح الله مركز عنايتهم وتوجهاتهم كلها ، ويقومون بتأدية الزكاة خير قيام ، أي أن علاقاتهم المتبادلة تقوم على أساس من التناصح والتكافل فيما بينهم ، ويكونون دائماً خاشعين متذللين أمام الله ، يعني أنهم يعالجون كل قضية من قضايا الحياة ملتزمين بمشيئة الله فيها ، واقفين عند حدوده المرسومة لها ، غير مدفوعين بدوافع الأنانية والتعنت واللجاجة ، فإن سمتهم المميّزة التواضع وليس التمرد والعناد!

﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِذَا نَادَيْتُم إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ۝ قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَن ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ۝ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ۝﴾

هُزُوءًا وَلَعِبًا: سخرية، وهزلا ومجونا.

تَنقِمُونَ: تكرهون أو تعيبون وتنكرون.

وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ: أطاع الشيطان في معصية الله.

سَوَاءِ السَّبِيلِ: الطريق المعتدل وهو الإسلام.

المحتكرون لمقامات العبودية الإلهية ، مستأثرون بمظاهرها لأنفسهم ، بناءً على دينٍ مزعومٍ زائفٍ ، حين تقوم بينهم الدعوة إلى الدين الحق وبصورته الخالصة الأصيلة ، فإنهم يشعرون بكره بالغٍ ومقتٍ شديد نحوها ، لدرجة أنهم لا يتمالكون أن يفقدوا معقوليتهم ، ويصابوا بحالة نزقٍ وعدم توازنٍ ذهني تجعلهم يأخذون في الاستهزاء بالأشياء التي لا جدال في كونها جديرةً بالاحترام بالبداهة ، وقد كان يهود المدينة مُصابين بنفسها بهذه الحالة إزاء الدعوة الإسلامية ، فلم يتورعوا عن الاستهزاء والسخرية من أذان المسلمين والتلاعب بكلماته المقدسة ، والذين بلغوا إلى هذا الدرك الأسفل من البلادة وانعدام الوعي واللاجدية ، فقد يُحتمل أن تُوجد هناك علاقة الدعوة بينهم وبين رجلٍ مسلمٍ ، وأما علاقة المودة والصداقة فلا .

وبسبب تجردهم عن مخافة الله وتقواه ، يسهل على هؤلاء وأمثالهم أن يسيئوا الظن بالمسلمين الصادقين ، ويعتبروهم عصاةً مجرمين ، ويكونوا متأكدين من أنه لا غضاضة في سلوكهم ، وأن موقفهم هو عين الصواب عند الله تعالى !! ثم إنهم إذا لم يُعنوا بإصلاح عوجهم الذهني ذاك ، فإن بلادة إحساسهم تؤدي بهم نهائياً إلى حيث تعطل عقولهم تمام التعطل ، فلا تعود تقدر على التمييز بين الحق والباطل ، وبين الخير وضده ، ومن ثم فهم ينقلبون أشر من البهائم في شكل الآدميين ، إذ تتلاشى وتضمحل في داخلهم كل تلك الأحاسيس اللطيفة السامية التي تعمل في ضمير الإنسان عمل حارسٍ إلهي يزجره عن الاستجابة لدواعي الشر والغواية ، ويحثه على اتباع طريق الخير والرشاد ، مثل : الحياء ، والنبل ، والتسامح ، والميل إلى المسالك النزيهة والأساليب الفطرية الجميلة .

وآخر دركات هذا التدهور والانحلال أن تجري حياة المرء العملية بأكملها على سبيل الشيطان ، وعندما يصل الأمر بطائفةٍ ما إلى هذه الغاية ، فإنها لا تستحق شيئاً سوى اللعنة ، فلا تلبث أن تبتعد أقصى مراحل البعد عن الرحمة الإلهية ، وتمسخ إنسانيتها مسخاً ، وتعيش عيشة الوحوش والبهائم منحرفةً عن خطا الفطرة المستقيم !

إن عقل الإنسان هو الذي يحول دون اندفاعه وراء شهواته ونزواته اندفاع الأعمى، ولكن حين يستحوذ على الإنسان مشاعر البغض والعداوة والعناد يندمج عقله تحت هواه، ويفقد فاعليته وإيجابيته، فرغم كونه - وقتئذ - يبقى في ظاهر الأمر إنساناً، إلا أنه يستحيل حيواناً من حيث باطنه، وقد يكون بمستطاع رجل ذكي الفؤاد، نافذ البصيرة أن يعرف عقب النظر إليه أي حيوان يختفي وراء هيكله البشري الظاهري !!

﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ۚ ﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٥٧﴾

وَأَكْلِهِمُ الشُّحْتَ: المال الحرام ، وأفحشه الرشا.

الرَّبَّانِيُّونَ: عباد اليهود ، أو العلماء الفقهاء.

وَالْأَحْبَارُ: علماء اليهود.

إن المد الإسلامي المتصل وتعداد المسلمين المتزايد يوماً بعد يوم ، ملأ نفوس عدد غير يسير من يهود المدينة رعباً وفزعاً ؛ فلم يعودوا يطيقون أن يتصدوا المناوأة الإسلام مناوأة صريحة ومكشوفة ؛ فلجئوا إلى التظاهر بالإسلام من خلال أداء كلمات الإيمان والتسليم بألستهم ، على أنهم ظلوا كما كانوا من قبل - متشبثين بدين آبائهم الموروث ، ويغيب عن هؤلاء وأمثاهم أنهم لا يتعاملون مع أي إنسان في واقع الأمر ، بل يتعاملون مع الله ، والله هو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والضمائر ! وأنه تعالى سيحكم على كل إنسان باعتبار الحقيقة ، وليس بناءً على محض الكلمات التي كان قد لفظها يوماً من أجل منفعة أو مصلحة ما !!

وكانت طبقة الخواص من اليهود حينئذ تضم صنفين : أحدهما ، الرّيبون أو الربانيون ، ويمكن أن يطلق عليهم «المشاخ» ، وثانيهما الأحرار ، الذين كانوا عندهم بمنزلة الفقهاء وعلماء الشريعة ، على أن كلا الصنفين كان قد اتخذ من الدين ورده الذي يتلوه بالغدو والآصال ، كما أن صرح قيادتهم كان قائماً على أساس من الدين ، وباسم الدين نفسه كانت تنثال عليهم مبالغ مالية ضخمة ، غير أن سر قيادتهم وسمعتهم الشعبية العريضة في إرضاء العوام وليس في إرضاء الرب ، ويبدو أن كلامهم ونشاطهم كله ليس إلا من أجل الدين ، والدين وحده ، ولكن ذلك لم يكن إلا تجارةً دنيوية رخيصة كانت تُمارس باستغلال شعار الدين إنهم كانوا يعطون للناس باسم الدين الشيء نفسه الذي كانوا قد استحبوه لأنفسهم بغير الدين ، أي تسويق التظاهر بلباس الدين بدون التمسك الفعلي بتعاليمه ، وهو نوع من التدين يخلق روح الدين نفسه !!

إن الدين المحبب إلى الله هو دين التقوى ، يعني أن يعيش الإنسان بين أبناء جنسه ، فلا ينطلق لسانه بكلمات الإثم ، وأن يكون متحرراً غاية التحرر من الطرق المحرمة في نشاطاته العملية ، ومتحرراً بالعدل والإنصاف في التعامل مع جميع الناس ، دون أن يظلم أحداً أو يبغى عليه ، غير أن نفس الإنسان دائماً ما تدفعه دفعاً نحو اتجاه المادية والتفعية ، فالإنسان يريد أن يمارس حياة لا تُمل عليه ضرورة النظر إلى الصواب والغلط إنما تستوجه رعاية مصالحه ومنافعه الذاتية ، وكان عامة اليهود على هذا الوضع ، مما كان يفرض على خاصتهم أن يقوموا بنهيهم عن ذلك ، وإرشادهم إلى طريق الخير والمعروف ، ولكنهم لاذوا بالصمت ، كما تم بينهم وبين العوام تفاهم غير منطوق ، ثم نشروا ديناً بين أوساط العوام انطوى على ضمان أكيد للنجاة ، والبلوغ إلى الدرجات العلاء من غير حاجة إلى إحداث أي تغيير حقيقي في الحياة .

إن هؤلاء الخواص لم يتناولوا حياة عامتهم الحقيقية بالشجب والانتقاد ، وبدلاً من ذلك كانوا يتغنون أمامهم بأقاصيص خرافية كاذبة عن فضائل الملة اليهودية ، ويصبغون معاركهم القومية بصبغة الدين ويبشرونهم بأن قصوراً شامخات ستشيد في جنة

الخلد، فيما إذا قاموا بإعادة كذا وكذا من الأعمال الرسمية للغاية .

وإنه لعمل متناهٍ في القبح والشناعة عند الله أن ينشر أحد بين الناس ديناً لا يستوجب القيام بتغيير الحياة الحقيقية العملية تغييراً جذرياً ملموساً، بينما يضمن الفوز بالجنة على محض الاهتمام بمراسم سطحية ومظاهر خلافة فارغة !

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾

مَغْلُولَةٌ: مقبوضة عن العطاء بخلا.

وعندما أكد القرآن على الإنفاق في سبيل الله ، وإعطائه «القرض الحسن» ، فاتخذ منه اليهود موضوع سخريه واستهزاء ، فيقولون : إن الله فقير وعباده أغنياء ، وإن الله يُعاني في هذه الأيام من حالة العُسر وضيق ذات اليد ، لذا يطلب منهم الدين !! (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً) ولم تكن أقوالهم تلك موجهة أساساً إلى الله ، بل إلى الرسول والقرآن ، فقد علموا جيداً أن الذات الإلهية أعلى وأرفع من كل نقص وعوز ، وإنما يهدفون من أقوالهم إلى إيهام السذج البسطاء من الناس بأن هذا النبي ليس بنبي صادق ، وأن القرآن ليس بكتاب الله ، إذ لو كان القرآن كتاباً منزلاً من عند الله لما كان فيه ما فيه من هذه السخافات والمضحكات (نعوذ بالله من ذلك) .

ومثل هذه الأقاويل وأشباهها تدل على أن أصحابها ليسوا من العاطفة الدينية الصادقة في شيء ، وأنهم يعيشون على مستوى القسوة والبلادة ، وفي أعماق دركٍ من انعدام الوعي وجمود الفكر !!

وإن إنكار اليهود لهداية القرآن لم يكن محض إنكارٍ بالمعنى البسيط، بل ناشئ عن

زعمهم القاتل إنما الشعب المخلص أو مضمون النجاة ، فما الذي يوجنا إذن إلى الاعتراف بأية هداية أخرى !! ، وإنه إذا تخدّرت عقول قوم بنفسية الغرور والتفاخر من هذا النوع ، تولدت في نفوسهم أشد وأخطر أنواع العُجب والأنانية ، ولا يكاد يرضى هؤلاء بالتخلي عن أنانيتهم وعجبهم ذلك حتى في أثناء تعاملاتهم مع الآخرين في الحياة اليومية ، مما يُورث البغضاء ويملاً المجتمع فرقة وعناداً وعداوة !

إن دعوة النبي تتمثل في حث الإنسان على التمسك بدين الطاعة الإلهية ذاته ، الذي يدين به الكون بكل ما فيه ، وهذا هو إصلاح الأرض ، إذاً فإن الذين يتصدّون الآن لعرقلة الدعوة النبوية ، إنما يعملون على إثارة الفساد في الأرض .

بيد أن الإنسان تنحصر حرّيته في أن يقذف بفساده الداخلي إلى الخارج فحسب ، ولا أحد يملك الحرية لتقرير مستقبل غيره أو التصرف في نصيبه المفروض من القدر الأعلى .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾

أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ: معتدلة ، وهم من أسلم منهم .

إن السبب الرئيسي وراء ظواهر الانحراف والضلال يرجع إلى عتو الإنسان وتمرده ، إذ لو كان يخاف الله حقاً فلسرعان ما يدرك الكلام المنزل من عند الله من غيره ، فإن نفسية الخوف ستقضي على كل ما تعتمل في داخله من دوافع ومحركات أخرى ، ولن يلبث المرء بالتالي أن يعرف كلام الله على الفور ، ويبادر إلى الإيذان به ، وإذا صرف المرء اهتمامه نحو الله ، صار مستحقاً لتنصرف عنايات الله تعالى إليه ، فيقابله الله بتطهيره من

نقائضه البشرية، وتبويته بعد الموت منزلاً كريماً في حدائق الجنة ذات البهجة والنعيم المقيم.

إن سيئات المرء ، أو نقائضه ومآخذه النفسية تقف عثرةً في طريق تقدمه نحو الجنة ، ولا يسعد بالوصول إلى الجنة إلا الشخص الذي كتب الله له التوفيق للتغلب على مآخذه ونقائضه النفسية !!

وحينما تقوم دعوة الحق ، فإنها لا تلبث أن تصير مصدر القلق والإزعاج للذين يحتلون مكان الرئاسة في ظل النظام السابق ؛ وذلك لحذرهم من الانضواء تحت رايتها فستصبح مصالحهم الاقتصادية وأمجادهم القيادية هباءً منثوراً.

غير أن هذا الحذر ليس إلا نتاجاً لضيق أفق النظر ، فيغرب عن أصحابه أن الدعوة التي يرمقونها بعين القلق والانزعاج ، إنما ظهرت إلى الوجود لاختبار جدارتهم وصلاحتهم ، فإن استحقاقهم لإنعام الله وجوائزهم ، أو عدم استحقاقهم لذلك ، لن يترتب على ما يتخذونه هنا من تدابير تحفظية ، بل إنما يتوقف على موقفهم الذي يقفونه من دعوة الحق ، وعلى هذا الاعتبار فكأن لجوءهم إلى إنكار دعوة الحق هو الشيء الذي يسحب جدارتهم واستحقاقهم عند الله تعالى !!

إن الأمم الكتابية دائماً ما تصطنع ديناً مزعوماً مزيفاً عن طريق الإفراط أو التفريط في التعاليم الإلهية الأصيلة ، وعلى توالي الأيام يألفه أبناؤها بدورهم ويعتبرونه الدين الإلهي الأصيل ، وعندما يظهر أمامهم دين الله الحق القويم فيصابون بالانزعاج والنفور منه ، لعدم استئناسهم به .

وهكذا كان حال اليهود والنصارى ، فقد ظلت أكثريتهم عاجزةً عن الظفر بصدق الإسلام ماعداً أفراداً قلائل منهم - كالجاشي ملك الحبش ، وعبد الله بن سلام وغيرهما - الذين كانوا قائمين على جادة التوسط والاقتصاد ، فلم يصعب عليهم أن يدركوا صدق الإسلام ، وقد بادروا هؤلاء باعترافهم بالإسلام كما لو كانوا يسيرون على

الدرب ذاته من ذي قبل ، وإنما جاء انضمامهم إلى جماعة المسلمين امتداداً لمسيرتهم ومواصلة لها !

﴿ يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

عندما بُعث نبي الإسلام ﷺ لم تكن جزيرة العرب خالية من المنادين بالدين أو الممارسين له ، بل إن أساس المجتمع العربي كان قائماً على شعار الدين ، وكان ثمة أناس كثيرون قد بلغوا أعلى مراتب الإمامة والقيادة باسم الدين ، وتصلهم مبالغ مالية كبيرة بعنوان الدين ، كما كان احتلال المناصب الدينية في المجتمع آنذاك يُعد رمزاً للمجد والفخر ، وبالجملة فلم يكن الدين أمراً غريباً أو شيئاً غير مألوف لدى سكان الجزيرة العربية ، ولكن بالرغم من ذلك فقد ووجه عليه الصلاة والسلام بمعارضة أشد وأعنف ما يكون من قبل العرب ، فما تعليل هذه الظاهرة إذن !!

يرجع السبب في ذلك إلى أن ديناً مزعوماً كان قد انتشر ونال رواجاً وقبولاً واسعاً بينهم حاملاً شعار الدين الإلهي ، ونتيجة لتقاليد القرون المتطاولة ظهرت إلى الوجود مقاعد الشرف والوجاهة تحت عنوان هذا الدين المزعوم ، كما ساعد ذلك أيضاً على إيجاد صور كثيرة مختلفة للمنافع والمصالح ، وفي بيئة كهذه ، لما قام نبي الإسلام ﷺ بتقديم دعوة الدين الخالص إلى الناس خُيل إليهم أنها جاءت لكي تُلغي اعتبارهم الديني وتسحب امتيازاتهم ، فامتلات نفوسهم حذراً وخوفاً من أن الدين الجديد إذا شق طريقه نحو القبول والانتشار على نطاق واسع ، فسينهار تلقائياً هيكلمهم الديني ، الذي لم يبلغوا إلى ما بلغوا إليه من قمة المجد والسيادة إلا في ظله !!

وهذا الوضع يشكل خطورةً كبيرةً للداعي ، فيصير قيامه بعمله الدعوي على مرأى ومسمع القوم بمثابة الصدام والتقاتل مع سلطات العصر الدينية ، إذ يقول لنفسه : إنني لو قمت بتبليغ الدين الحق ، بدون تنازل أو مصالحة أو استسلام سأقابل برد فعلٍ

قاسٍ وعنيفٍ للغاية، وأجعل من نفسي موضع السخرية والإهانة والتذلل ، وستعرض أسباب معيشتي للإتلاف والتدمير ، وستتخذ ضدي إجراءات عدوانية تعسفية ، وسأحرم من الأعوان والأنصار فأبقى وحيداً في الساحة !!

فالداعي يجد نفسه أمام خيارين أحلاهما مرّ : القيام بمسؤوليات الدعوة ، مع العلم بأن ذلك يؤدي إلى أن ينفلت زمام المصالح الدنيوية من يده ، وأما إذا قام برعاية المصالح الدنيوية، فإن أداء العمل الدعوي على أتم وجه يبدو مستحيلاً ، فما العلاج ؟ ، هنا يلعب وعد الله دوره في تركيز اهتمام الداعي ، لقد وعد الله - جل وعلا - بأنه سيكون كافياً للداعي شرّ الناس كله فيما لو سخر نفسه لتبليغ الرسالة الإلهية وحدها ، لذا فينبغي للداعي أن يركز جهوده واهتماماته على الوفاء بمقتضيات الدعوة ، وأما بالنسبة للمصائب والمحن التي تُصبّ عليه من قبل الأمة المدعوة صباً ، فليتوكل على الله - جل جلاله !

إن ردّ فعل المخاطبين أمر طبيعي ، ولا مناص للداعي عن مواجهته على أية حال ، غير أن آثاره ومضاعفاته تكون محصورةً في نطاق المقتضي اللازم لسنة الابتلاء الإلهية ، دون أن تتعداه إلى مدى أبعد من ذلك ، فلن يحدث أن يمتلك المعارضون من القدرة والطاقة ما يمكنهم من وقف المسيرة الدعوية ، والحيلولة دون وصولها إلى غايتها المرسومة، إن بلوغ دعوة حقة إلى هدفها الدعوي المنشود يكون تدبيراً إلهياً ، ومن ثم فلا بد أن يتحقق ذلك عاجلاً أو آجلاً ، وأما إيمان المدعو بها بعدئذٍ ، فتلك مسئولية تقع على عاتقه ، ويتوقف إنجازها على رغبة المدعو ، وإرادته الذاتية سلباً وإيجاباً.

﴿ قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّبِئُونَ وَٱلنَّصْرَىٰ مَن ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

تَحْزَنُونَ ﴿٥٦﴾

فَلَا تَأْسَ: فلا تحزن ولا تتأسف.

وَالصَّابِرُونَ: عبدة الكواكب أو الملائكة مبتدأ خبره.

على أن اليهود كان قد وصل أمرهم إلى حد لم تعد بينهم وبين دين الله أية صلة عملية ، فما كان أفرادهم متمسكين فعلاً بأحكام الشريعة ، ولا كانت معاملاتهم ، وشئون حياتهم تجري وفقاً لمرضاة الرب ، إلا أنهم كانوا قد اخترعوا عقيدة نسجت عناصرها من الأمانى الجميلة ، وهي تقول بأن نجاتهم عند الله مضمونة مؤكدة ، فعاشوا في أساطير تتغنى بفضيلتهم القومية ، وأقاصيص تسبح بقدسية أسلافهم العظام ، ولا قيمة عند الله لهذه الآمال والأمانى الحاملة ، وإن القيمة عند الله في التزام المرء بوصايا الله وأحكامه ، وتأسيس حياته الحقيقية على دين الله ، لا غير.

إن دعوة تحيى مؤكدة على أن القيمة عند الله للعمل دون الآمال والأمانى ، طالما تواجه برد فعلٍ عنيفٍ من قبل الذين يمارسون حياتهم على أساس من الأمانى والآمال الزائفة ، فإنهم يرون في دعوة كهذه معول هدمٍ لصرح آمالهم الجميلة ، ويصير هذا الوضع بمثابة محنة شديدة هؤلاء ، فيتصدون لمعارضة مثل هذه الدعوة معارضةً أشد ما يكون ، وهنالك تظهر عبادة النفس المقتنة بعبادة الله الظاهرية ، تظهر للعيان سافرةً مكشوفةً ، وإن الدعوة التي كان ينبغي لهم أن يستمدوا منها غذاءً ربانياً ، إذا بهم يستمدون منها محض غذاءٍ للإنكار والطغيان !!

إن الأجيال التالية لأوائل المؤمنين بالأنبياء المبعوثين في العصور السابقة ، تتخذ شكل شعبٍ أو أمةٍ معينة ذات كيان مستقلٍ على تعاقب العصور ، وقد يصل الأمر فيما بعد إلى أن العمل بنماذج الأنبياء ينعدم ويتلاشى ، لخمود جذوة الشوق للتأسي بقدوتهم في نفوس أفراد الأمة ، بينما تنتشر بينهم القصائد المشحونة بفضائلهم وأمجادهم التاريخية المتمثلة في صورة قصص وأساطير خرافية انتشاًراً واسعاً جداً ،

وهكذا يبدأ أبناء كل أمة - وبخاصة الأمة الكتابية - يقولون : إننا أفضل البشر ، وخير الأمم ، وأن نجاتنا مضمونة مكفولة ، وأنها أرفع الناس درجات عند الله تعالى ، غير أنه لا قيمة عند الله لهذه الديانات أو المذاهب الطائفية ، فإن قضية كل شخص ستطرح وتناقش في محكمة الله على حدة ، أي بصفة فردية ، وإن قرار الله عن مستقبله سيكون مبنياً على عمله الذاتي ، وليس مبنياً على شيء آخر سواه .

إن إقامة كتاب الله يعني أن يستقر الإيمان بالله في أعماقك ، ويستولي عليك الخوف من مؤاخذه الآخرة ، وأن تمارس حياتك بين بني جنسك على أساس من العمل الصالح والسلوك الحسن ، وهذا هو أصل الدين بعينه ، وكل فرد مطالب باختياره في حياته العملية ، وإنه لا قيمة للأمة الأمانة على الكتاب السماوي إلا إذا كان أبنائها قائمين متمسكين بهذا الدين الإلهي ، ولا يلبثون أن يفقدوا كل قيمتهم عند الله بعد انحرافهم عنه ، حتى يصيروا أهون شأنًا وأقل قيمة من الكفار والمشركون الضُّرَّاء !!

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قَالَا إِنَّا هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^١
 ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾^٢ وَحَسِبُوا أَنَّ تَكُونَ
 فِتْنَةً فَعَمَّوْا وَصَمُّوْا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمَّوْا وَصَمُّوْا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ
 بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٣﴾
 فِتْنَةٌ : بلاء وعذاب شديد .

لقد أخذ الله من اليهود عهد الإيمان والطاعة له على يد موسى - عليه الصلاة والسلام - وقد ظلوا قائمين على هذا العهد لفترة من الزمن يسيرة ، ثم أخذ الفساد يتفشى بينهم ، فبعث الله فيهم رجالاً مصلحين للتذكير بعهدهم وإيقاظهم من غفلتهم ، غير أن تحذيرات المصلحين لم تزد اليهود إلا عناداً وطغياناً ، فبدلاً من الإصغاء إلى النصيحة ، كتبوا أصوات الناصحين الربانيين ، وسفكوا دماء عدد كبير منهم ظلماً

وعدواناً.

ولما بلغ طغيانهم وعنادهم هذا المبلغ ، سلّط الله عليهم نبوخذ نصر (بختنصر) ملك بابل ونيوى (العراق)، الذي حمل في ٥٨٩ ق.م على أورشليم ، فدمّر على اليهود مدينتهم المقدسة ، وأخذ معه سبايا من اليهود إلى مملكته ، ليتخذ منهم سخرة .

وقد كان لهذه الفاجعة أثرها في إلانة قلوب اليهود ، فتضرعوا إلى الله تائبين مستغفرين ، وقد انصرفت العناية الإلهية إليهم ، ففتح الله لهم طريقاً إلى الخلاص مما هم فيه من وحشة النفي وهوان السخرة ، وذلك على يد الإمبراطور الإيراني كورش الثاني [Cyrus II] وهو الذي قام بغزو الكلدانيين في عام ٥٣٩ ق.م ، فانتصر عليهم انتصاراً ظاهراً واحتل بلادهم ، وكان من أول أحكامه بعد الانتصار ، أن سمح لليهود بالعودة إلى أورشليم.

ومن هنا بدأ فصل جديد رائع من حياة اليهود وتاريخهم ، فاستقامت لهم الأمور ، ولكن سرعان ما أدركتهم الغفلة مرةً أخرى ، فعادوا يمارسون البغي والطغيان كسابق عهدهم ، فتكرر الإنذار والتحذير الإلهي لهم ثانياً كذلك على ألسنة الأنبياء والمصلحين المبعوثين من عند الله ، غير أن ذلك كله لم يُجد في تنبيههم وإيقاظهم من رقبتهم تلك شيئاً ، فقتلوا سيدنا يحيى عليه السلام (على زعمهم) سيدنا المسيح ، مما أثار غضب الله عليهم ، فسلط الله عليهم تيتوس [Titus] - الإمبراطور الروماني - عام ٧٠ من الميلاد ، الذي غزا بلادهم وأحاطها خرائب موحشة ، فلم يبق لليهود من بعد ذلك قائمة ﴿إِلَّا يَحْبِلُ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ .

إن الأمم الآمينة على الكتاب السماوي طالما يغلب على عقول أبنائها في العصور التالية الاعتقاد بأنهم صفوة الله وخاصته ، وأنهم بذلك لن يؤاخذوا على شيء من سلوكهم وعملهم مهما كان فاسداً وسيئاً ، ومع أن التعاليم الإلهية الأصيلة تكون منطوية على تصريحات صارخة تشجب هذا النوع من الاعتقاد بشدة ، غير أنهم لا

يُعيرونها أي اهتمام، بل يتعامون ويتصامون عن ذلك ، إنهم يحبسون أنفسهم في هالة أو قوقعة من العقائد المزعومة والأساطير الافتراضية الباطلة ، مما يجعلهم لا يكادون يبصرون ولا يستمعون إلى التحذيرات الإلهية.

إن تاريخ اليهود ليشهد بأن أمةً كتابيةً ، إذا ما صارت مغلوقةً على أمرها ، فجُعلت في «قبضة أعدائها وتحت رحمتهم» فتتمر بفترة اختبار إلهي ، والمقصود من ذلك هو أن يتم إيقاظ الأمة من خلال عقوبة خفيفة طارئة ، فإن أسفر ذلك عن استيقاظ مشاعر العبودية الإلهية في نفوس أبناء الأمة ، رُفعت تلك العقوبة عنها ، وأما إذا كانت النتيجة غير هذا ، فإن الله يطردها من رحمته طرداً ، بحيث لا تتوجه إليها عنايته تعالى أبداً !

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ٥١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥٢﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٥٣﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ٥٤﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٥٥﴾

خَلَّتْ: مضت

وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ: كثيرة الصدق مع الله.

يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ: كسائر البشر فكيف تزعمونه آلهما.

أَنْتَى يُؤْفَكُونَ: كيف يصرفون عن تدبر الدلائل البينة وقبولها.

لقد زوّد الله تعالى سيدنا المسيح - عليه الصلاة والسلام - بمعجزات باهرة ليعلم الناس صدق نبوته فيؤمنوا به، ولكن النتيجة ظهرت بالعكس، فاعتقد المسيحيون، نظراً لمعجزاته تلك، أنه إله، وأن الله حالّ في ذاته متحد بها اتحاداً ذاتياً، بينما رفضه اليهود رفضاً باتاً، متهمين إياه - عليه الصلاة والسلام - بأنه ساحر ومشعوذ، لقد بُعث سيدنا المسيح - عليه الصلاة والسلام - من أجل هداية البشر، ولكن طائفة استمدت من غذاء الشرك، والأخرى من غذاء الكفر والجحود!!

إن الطعام هو العلامة الصارخة على غاية احتياج المرء، فإن المحتاج للطعام، محتاج لكل شيء، إذن فكيف يمكن أن يكون هذا المحتاج للطعام إلهاً يعبد؟! وكذلك الأمر بالنسبة إلى النفع والضرر، إن حصول النفع أو الضرر لأحد ليس بحادث بسيط، بل من جملة الوقائع التي يتطلب إيجادها مساعدة الكون بأكمله، وليس هنالك أحدٌ يقدر على تهيئة الأسباب الكونية من هذا النوع غير الله تعالى، ولذا فلا يستحق أحد من البشر أن يُرفع إلى مقام الألوهية.

وإنه إذ يتخذ المرء أحداً غير الله موضع عقيدته ومحبته، فيكون ناشئاً عن عاطفة خفية وراءه، وهي القائلة بأنه يتمتع بدرجة كبيرة وامتنيازات خطيرة الشأن في عالم الله، وأنه يستطيع أن يقف إلى جانبه كشفيح وناصر عند الله تعالى، غير أن الآمال من هذا النوع لا تعدو أن تكون آمالاً زائفة محضة، إن مدى عجز المخلوقات وعدم قدرتها على شيء بإزاء الخالق العظيم ليس أمراً مكشوفاً للعيان في عالم الامتحان الراهن، مما يجعل المرء عرضة لسوء الفهم والاعتقاد، ولكن إذا أزيح الستار عن وجه الحقائق كلها في اليوم الآخر، فسرى المرء يومئذ بعيني رأسه ما أوهم الأركان وأخفها وزناً، تلك التي كان يأوي ويستند إليها في الدنيا من دون الله تبارك وتعالى!!

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ

ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٣٥٤﴾

لَا تَغْلُوا: لا تجاوزا الحد ولا تفرطوا.

غَيْرَ الْحَقِّ: غلوا باطلا.

إن سيدنا المسيح - عليه الصلاة والسلام - كان في اعتقاد الرعيل الأول من تلاميذه «إنساناً مرسلًا من الله»، وقد ظلوا - بعض الوقت - يعتبرونه «إنساناً ورسولاً من الله»، ولكن عندما بدأ نفوذ دينه ﷺ يمتد، وجاوز حدود الشام، فاستقبلته فلسفات مصر واليونان، إذ دخل في دائرة المسيحية أناس تأثرت عقولهم بتيارات العصر الفلسفية غاية التأثير واصطبغت بصبغتها، فتضافرت العوامل الداخلية والبواعث الخارجية على الانتقال بدين المسيح إلى طورٍ جديد، فبدأت محاولات تفسير المسيحية بالأسلوب الفلسفي السائد إذ ذاك!

ولقد كانت كلمة فلاسفة مصر واليونان العليا في طول العالم المتحضر وعرضه في ذلك العصر، مما جعل أذكاء العصر يفكرون في ضوء مناهجهم الفكرية. إن فلاسفة اليونان اصطنعوا - بناءً على قياساتهم العقلية - صورةً خيالية للعالم، وكانوا يفسرون الحقيقة في شكل أفانيم ثلاثة وهي: الوجود، والحياة، والعلم.

وإذا كان العلماء المسيحيون قد انبهرت أذهانهم بهذه الأفكار والتصورات، إلى جانب رغبتهم في استمالة نفوس طبقة العصر الذكية وجذبها إلى الديانة المسيحية، أخذوا يبذلون جهوداً مكثفةً للتوفيق بين ديانتهم والاتجاهات الفكرية السائدة في عصرهم، فأعدوا للمسيحية تفسيراً من شأنه أن يطبع دين الله بطابع «الثالوث»، حتى يبدو للناس منسجماً تمام الانسجام مع شواكلهم الذهنية، فيتلقوه بالقبول، فانطلق أولئك العلماء يقولون: إن الحقيقة الدينية تتمثل في نوع من «التثليث»، والذي يتألف من "الأب" وهو أقنوم الوجود، ومن «الابن» وهو أقنوم الحياة، «وروح القدس» وهو أقنوم العلم، ومن أجل تكميل هذا المذهب الكلامي أضيفت إليه تصورات

مزعومة أخرى مثل قولهم : إن المسيح هو مظهر جسدي «للكلمة» ، وزعمهم بأن كل إنسان قد صار خاطئاً بعد خطيئة آدم الأولى ، فأرسل الله ابنه ليكفر عن خطايا البشر بدمه وحتى يضمن لهم بذلك النجاة والسعادة .. إلخ ، وهكذا فمن خلال الانصهار في بوتقة الأفكار والتصورات المصرية واليونانية والرومانية ظهر إلى الوجود في القرن الرابع من الهجرة ، ذلك الشيء الذي يطلق عليه اليوم «الديانة المسيحية»!!.

إن سبب الانحراف عن «سواء السبيل» يرجع في أكثر الأحيان إلى انبهار الناس بأفكار الأمم الضالة ، وأخذهم بالتالي في صياغة الدين في قالب أفكارها ، فمع إيمانهم بدين الله ، يعمدون إلى تفسيره مطابقاً ومنسجماً مع تلك التيارات الفكرية الغالبة ، ومن ثم يعتنقون ديناً غير إلهي في جوهره بعنوان الدين الإلهي ، كما أن النصارى قاموا بصياغة دينهم في قالب أفكار الأمم الوثنية المعاصرة لهم ، ثم أخذوا يقولون : إنه الدين المطلوب والمقبول عند الله تعالى !! وقد يتخذ هذا الانحراف ، في بعض الأحيان ، لوناً آخر ، فيتم إفراغ الدين وصوغه في قالب الطموحات والتطلعات القومية.

ويمثل اليهود نموذجاً تاريخياً لهذا النوع الثاني من التحريف ، إنهم قد اخترعوا لدين الله تفسيراً جعل منه «مصدقاً» لحياتهم الدنيوية على علائها ، بدل أن يجعله متحكماً في شئونها ، مغيراً ومصححاً لمسارها ، وعلى أن المسلمين ليس بإمكانهم أن يدخلوا مثل هذه التفسيرات المزيفة في نصوص الكتاب الإلهي ، غير أنهم يستطيعون أن يفعلوا ، بكامل الحرية ، فيما عدا النص القرآني ، كل ما فعلت الأمم السابقة !.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمْ أَوْلِيَاءَ

وَلَيْكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٥٦﴾

سَخِطَ اللهُ: غضب عليهم بما فعلوا.

ومن شأن الإيمان أنه يُرهِف حس المرء بالنسبة لممارسات الظلم والمنكر، فلا يلبث أن يرى أحداً وهو يظلم غيره، أو يتعاطى منكراً حتى يشعر بلهفة عارمة تبعثه على المبادرة الفورية لمنعه عن ذلك حالاً، ومن ثم فعلاقة صاحب الإيمان مع الأشرار والظالمين لا تكون علاقة المودة والصداقة، بل علاقة الهجر والمفارقة.

غير أن جذوة الإيمان عندما يخبو ضرامها، فإن المرء يفقد رهافة حسه، إلا فيما يتصل بذاته أو يمس مصالحه، فلا يرى من منكرٍ أو سوءٍ إلا ما كان موجهاً إلى نفسه مباشرة، وأما السوء الموجه إلى الآخرين، فيقف منه على الحياد التام !!

ولم يكن هذا الانحطاط الذي أصاب بني إسرائيل يعني أنهم كانوا قد نبذوا الحديث عن الفضائل والتغنى بها بألستهم، إذ ما انفك علماءهم وخاصتهم يُلقون بين الناس مواعظ بليغة وخطباً رائعة تروق الأسماع، ولم يعودوا من الجدبة والإخلاص بحيث ينبرون لمحاربة الظلم والمنكر أينما وُجدا، والأخذ على يد الممارس لهما كائناً من كان!

يقول سيدنا داود - عليه الصلاة والسلام - عن يهود زمانه: «فسدوا، ورجسوا بأفعالهم ليس من يعمل صلاحاً»^(١).

بيد أن مزاميره عليه السلام تتضمن - مع ذلك - شواهد على أن ما استوجب اللعنة على اليهود، إنما هو ذلك المسلك الإزدواجي أو التناقض الصارخ البغيض الذي كانوا يعيشونه بين قولهم وفعلهم أو بين ظاهرهم وباطنهم، فقد وصفهم في المزمور الثامن والعشرين وهو يتضرع إلى الربّ بقوله: «لا تجذبني مع الأشرار، ومع فعلة الإثم، المخاطبين أصحابهم بالسلام، والشر قلوبهم».

(١) انظر: المزمور الرابع عشر.

كما يقول سيدنا المسيح - عليه الصلاة والسلام - عن معاصريه اليهود : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ! لأنكم تأكلون بيوت الأرملة ، ولعلية تطيلون صلواتكم ، إنكم تُعشرون النعنع والشبث والكمون ، وتركتم أثقل الناموس ؛ الحق والرحمة والإيمان ، أيها القادة العُثمانيون الذين يعفون عن البعوضة ، ويلعبون الجمل ، هكذا أنتم ، من خارج تظهرون للناس أبراراً ، ولكنكم من داخل مشحونون رياءً وإثمًا!! »^(١).

فقد كان علماء اليهود يبينون للناس الدستور أو الناموس الإلهي ، ويطلبون صلواتهم ، ويؤدون زكاة محاصيلهم الزراعية ، غير أن مواعظهم لم تكن تغدو أن تكون كلمات طنانة يتم تكرارها وإعادتها في مختلف المناسبات دون أن تُترجم إلى واقع عملي معاش ، وربما كانوا يببالغون في الاهتمام بإقامة أحكام ظاهرية لا تكلف عناء أو مشقة كبيرة ، ولكن سرعان ما تزل أقدامهم فيما إذا كانت الضرورة قاضية بإنصاف المظلوم ورد الحق إلى صاحبه ، أو الرحمة والعطف على ضعيف مسكين ، أو كان الموقف يفرض عليهم تنفيذ أمر من أوامر الله على حساب مصالحهم الذاتية ، ويأخذون في مناصبة العداء لشخص يقوم بلفت أنظارهم إلى أخطائهم ويدعوهم إلى التخلي عنها ، وهذا هو الشيء الذي جعلهم أهلاً للعنة والغضب الإلهي .

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَيْسِيِّينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٦﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا

(١) إنجيل متى : الإصحاح الثالث والعشرون.

رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨١﴾ فَأَثْبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٣﴾

تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ: تمتلئ أعينهم بالدمع فتصبه.

مما يُستفاد من الآيات الواردة هنا أن الجنة قد تكون مكافأة «(لقول)»، حيث قال تعالى: ﴿فَأَثْبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرَى﴾، والسؤال: ما هو القول الذي جعل من قائله أهلاً للجنة الأبدية؟ إن ذلك القول كان ممثلاً لوجودهم بأكمله، إنه كان الصراخ والأنين المنبعث من شخصيتهم المتخطمة لثقل وطأة المعرفة الإيمانية! فحين سمع هؤلاء كلام الله عليه أدركوا الحق الذي كان منطوياً عليه إدراكاً دقيقاً وشاملاً، وبالتالي نفذ الحق إلى أعماق قلوبهم وعقولهم، وأحدث في نفوسهم انقلاباً تحول معه اتجاه طموحاتهم وآمالهم من جانب إلى آخر، وانهارت كل جدران التعصب وحواجز المصلحة، وانضموا إلى الحق، فصاروا شهداء الحق؛ ومعنى الشهيد هو أن تتجسد حقيقة عليا في ذات إنسان، والآن لم يعد القرآن عندهم محض كتاب يُتلى، بل صار آية حية على مالك الكون وخالفه العظيم، وعلى أن هذه التجربة الربانية التي مرت بهؤلاء تم التعبير عنها بشكل كلمات، غير أن كلماتهم تلك لم تكن مجرد كلمات تُقال فقط، بل كانت زلزالاً عنيفاً هز وجودهم بأكمله، فلم تتمالك أعينهم أن فاضت بالدموع!

وليس «(القول)» من حيث حقيقته وجوهره، عبارة عن نطق أو أداء لساني، إنه الصورة الأسمى لإضفاء المعنوية على عمل الإنسان، والذي لا يتمتع بصلاحية استخدامه في الكون المعلوم أي مخلوق آخر غير الإنسان، إن قولاً حقيقياً لهو حادث أدق وألطف وأهم مغزى ودلالة يقع في رحاب الكون، إذ القول هو الإظهار الأكبر لذات الإنسان، إن القول عمل ناطق، فلو أن شخصاً أثبت عبوديته على مستوى القول الحقيقي لصار مستحقاً للجنة بكل تأكيد!

إنَّ الكِبَر هو العقبة الكبرى التي تحول دائماً دون الاعتراف بالحق ، ولذلك نجد المصابين بهذا الداء العضال يقابلون دعوة الحق بمعارضة أشد ورد فعل أقسى وأعنف ما يكون، أما الذين لا تنطوي قلوبهم على شيء من الكبر ، وإن كانوا مصابين بأي ضلالٍ أو انحرافٍ آخر ؛ لا يذهبون في مخالفتهم للحق إلى حدِّ اللدد والعناد ، مما يفتح لنا باب الأمل في أنهم عسى أن يُوفقوا لقبول الحق والانضواء تحت رايته !

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَمُوا طَيِّبَتْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ٨٧ ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ ٨٨ ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ٨٩ ﴿

بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ: هو أن يحلف على الشيء معتقدا صدقه والأمر بخلافه أو ما يجري على اللسان مما لا يقصد به اليمين.

عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ: وثقتموها بالقصد والنية .

إن علاقة العبد بربه علاقة حية ؛ تقوم على مستوى النفسيات والمشاعر ؛ وهي بذلك حادث داخلي بكل معنى الكلمة ، غير أن هذه العلاقة الداخلية حين يعترها الضعف والفتور في زمن الانحطاط الديني ، فيغلب على الناس اللجوء إلى وسائل خارجية «مساعدة» على إحرازها وتوطيدها بما فيها مذهب ترك اللذات الدنيوية ، الذي يُدعى «الرهبانية» ، حيث يُعتقد بأن الابتعاد عن الأشياء المادية سيكون سبباً في

تقريب المرء إلى الله - عز وجل!!

ولقد وقع بعض الصحابة تحت تأثير مثل هذه الأفكار الرهبانية ؛ فأرادوا ألا يأكلوا لحماً ، ولا يناموا ليلاً ، وأن يخلصوا أنفسهم ، ويختاروا عيشة المتزهدين والدرأويش مغادرين بيوتهم وأهلهم ، حتى حلف العديد منهم على ذلك ، فنزلت هذه الآيات تمنعهم من إنجاز ما عقدوا العزم عليه ، وترشدهم إلى أنه لن يتمكن أحد من إحراز القرب الإلهي عن طريق تحريم الحلال ، إذ كل ما يناله المرء ، فإنما يناله متقيداً بحدود الفطرة ، وليس متخطياً إياها!.

والرهبانية الحقيقية - طبقاً للدين الإسلامي الحنيف - هي التقوى والشكر ، وتعني التقوى: أن يجتنب المرء كل ما نهى الله عنه ، فربما تنبعث في داخله شهوة تدفعه إلى الاستمتاع والتلذذ بالحرام ، ولكنه يمسك نفسه عن ذلك من أجل مخافة الله ، وقد يثور غضبه على أحد الناس ، مما يجعله يرغب في أن يفتك به ، غير أن الخشية من الله تحول دون اندفاعه نحو القيام بأعمال تخريبية ضد أخيه ، وقد تسوّل له نفسه أن يمارس حياة حرة طليقة من كل قيد شرعي أو التزام أخلاقي ، إلا أن الحذر المستقر في أعماق قلبه من مؤاخذه الله وبطشه يرغمه على الوقوف عند حدود الله المرسومة ، وعدم تجاوزها بحالٍ من الأحوال!

وكذلك الشأن بالنسبة للشكر ، فالشاكر إذا ما حصل على شيء دنيوي يُغضب عليه ، كثروة طائلة ، أو منصبٍ خطير ، أو سمعة طيبة عريضة ، أو صحة وجمال بدني ، أو ما إلى ذلك من متاع الحياة الدنيا ، لم يبعثه ذلك على الغرور والبطر والإعجاب بنفسه ، زاعماً أنها نتيجة لجهوده الذاتية ، بل يحسبه عطية من الله ، فيعترف بمنه وكرمه ، وينصهر في بوتقة التواضع والممنونية للمنعّم الوهاب ، وهذه الأشياء التي تربط المرء بالله ، توطن علاقة المرء بربه وقربه منه يزداد ، مادام يخشى الله ويشكر له ، ومع أن البعد عن الأشياء المادية الفانية أمر مطلوب بلا ريب ، غير أنه بعد نفسي وقلبي ، وليس بعداً جسدانياً ظاهرياً.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ
الشَّيْطَانِ فَأَجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿١٠١﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ
الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ
مُنْتَهُونَ ﴿١٠٢﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى
رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٠٣﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ
فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا
وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

وَالْأَنْصَابُ: حجارة حول الكعبة يعظمونها.

وَالْأَزْلَامُ: قدام الاستقسام في الجاهلية.

رِجْسٌ: خبيث قذر ، نجس.

جُنَاحٌ: إثم وخرج.

طَعِمُوا: شربوا أو أكلوا المحرم قبل تحريمه.

إن شرب الخمر ، واللعب بالقمار ، والتماثيل المنصوبة من أجل عبادة غير الله ، أو
لذبح القرابين وتقديم النذور عندها باسم أحد غير الله تعالى ، والاستقسام بالأزلام -
بمعنى التفاؤل والتشاؤم وضرب القرعة التي تشتمل على طلب المعونة من غير الله -
كل ذلك أعمال شيطانية ؛ ذلك لأنها تؤدي إلى التدنى والانحدار عن المستوى العقلي
والسلوكي.

فالخمر تقضي بدورها على ما يُوجد في نفس المرء من أحاسيس إنسانية لطيفة ، وأما
القمار فقاتل لروح الإيثار والتعاون ، وهكذا الأنصاب والأزلام فهي من جملة أشياء
تقوم إما على عواطف سطحية ، وإما على أوهام وأساطير خرافية !!

إن الإسلام يريد الإنسان ذاكرةً لله وعابداً له تعالى وحده ، وأن يُلزم نفسه بطاعة الله وطاعة رسوله ، وهذه أمور لا بد للقيام بها من أن يكون المرء من الجدية بمكان ؛ على حين أن أول ما تقضي عليه الأشياء السالفة الذكر هو الجدّة بعينها !

والإسلام يستهدف بناء إنسان يقدر على إدراك الحقائق ، بينما الخمر تُلهي شاربها عن الحقائق كلها ، والإنسان المطلوب في نظر الإسلام هو الذي يمارس حياته متسامياً إلى ما فوق المادة ، في حين أن القمار يخلق في لاعبه ميلاً إجرامياً إلى المادية والنفعية ، والإسلام يريد أن يبني إنساناً يركز على أساس من الواقعات ، بينما الأنصاب والأزلام تجعل الإنسان يتخبط في أودية الخرافات والأوهام الباطلة .

والخمر تُورث بلاءة الحس الزائدة ، والقمار يُولد الأثرة الزائدة ، وكلا هذين الشيئين مجلبة لمساوئ وشرور اجتماعية لا تُحصى ، فالمصابون ببلاءة الحس لا يعدّون عرض غيرهم عرضاً ، ولا شيء الغير شيئاً يستوجب الاحترام والرعاية ، فلا يلبث أن يبلغوا من الجرأة على الظلم والجور ، وانتهاك حرّيات الآخرين والتعدي على حقوقهم ، وإيذاؤهم بغير حق إلى أقصى الحدود .

وكذلك القمار يمثل أعظم صور الاستغلال والأثرة خبثاً وشناعةً ، إذ يحاول المقامر أن يحقق لنفسه أكبر ربح على خسران الكثيرين سواء ، وإن شارب الخمر يتجرد من الإحساس بآلام الآخرين ، واللاعب بالقمار يتخذ من غيره موضوعاً للاستغلال والسلب والنهب ، والمجتمع الذي يضم أفراداً هذه خصالهم ، تُرى ، أي شيء ، سينشأ ويسود في رحابه سوى فقدان الثقة المتبادلة ، وفساد ذات البين (القطيعة) ، والعداوة والبغضاء ، والأحقاد والسخائم الملتهبة في الصدور ، والتصادم المستمر ؟!

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ ءَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن تَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِّن

النَّعْمِ نَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةً طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهُ ۚ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٢٦٢﴾

لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ: ليختبرنكم ويمتحننكم.

وَأَنْتُمْ حُرْمٌ: محرمون بالحج والعمرة.

النَّعْمِ: الإبل والبقر والضأن والمعز.

بَالِغَ الْكَعْبَةِ: واصل الحرم فيذبح به.

عَدْلُ ذَلِكَ: معادل الطعام ومقابله.

وَبَالَ أَمْرِهِ: ثقل فعله وسوء عاقبة ذنبه.

ومن أركان الحج والعمرة أن يرتدي الحاج أو المعتمر ملابس الإحرام الخاصة عند حدود الميقات المقررة ، قبل التوجه إلى الكعبة ، وفي أثناء رحلته نحو الكعبة كثيراً ما يشاهد المحرم حيوانات البر والطيور وهي تقع في متناول يده ، ويكون اقتناصها في غاية السهولة ، غير أن اقتناصها ، سواء أقام به المرء بنفسه أم ساعد غيره عليه ، كلاهما محظور ومحرم في حالة الإحرام ، وقد نزلت هذه الآية - كما جاء في الروايات - خلال مسيرة الحديبية ، إذ كان المسلمون محرمين بقصد العمرة ، وكانت أسراب الطيور والحيوانات البرية إذ ذاك تمر من أمامهم ، فكان من السهولة اقتناصها بالسهم أو طعنها بالرمح ، وكان المسلمون يطمعون - في ذلك الوقت - في الاصطياد بحكم عادتهم وضرورتهم معاً ، ولكن حين نزل الحكم الإلهي بالتحريم ، أمسك الجميع أيديهم عن ذلك ، وهذا الحكم الذي ورد بشأن معاملة الحيوانات في حالة الإحرام مطلوب عند التعامل مع الناس في الحياة اليومية ، والمقصد الأصلي من هذا الحكم هو: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ ، فقد وضع الله الإنسان في هذه الدنيا ، وارتفع بذاته المقدسة عن

مواقع أبصاره؛ وذلك لكي يختبر الناس؛ فيتميز منهم البصير العارف بالحقيقة، الذي يعيش في الدنيا كما لو كان يرى الله تعالى متجلياً أمامه بكل قدرته وجلاله وجبروته، عن الغافل المستهتر منهم، الذي يخلو قلبه من خوف الله لأنه لا يراه بعينه، فيقضي حياته تبعاً لأهوائه ونزواته.

وهذا الاختبار الذي يجري في رحلة الحج لبضعة أيام مع اهتمام بالمعاملات وبالعلاقات الإنسانية المتبادلة كل اليوم، فقد يصادف أحد الناس بعض خصومه في موطن يتمكن فيه من أن يسطو به ويجهز عليه، أو يلحق به خسارة مالية فادحة، أو يهتك ستره ويشوه سمعته، إلخ، ففي مثل هذا الموطن ينقسم الناس إلى نوعين: نوع يشعر بمخافة الله، فلا يستخدم يده ولسانه ضد خصمه رغم تمكنه منه وتنام قدرته عليه، والنوع الآخر الذي حين تسنح له فرصة التغلب على أحد يوماً يهينه، ويتخذ منه عرضةً أو ضحية لقهره واضطهاده، وقد أثبت أول هذين أنه يخاف الله بالغيب، بينما الأخير أثبت عكس ذلك تماماً، وإن للأول عند الله نعماً كثيرة لا تحصى، وللآخر عذاباً أليماً لا يُطاق!

﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ * جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَيْدَ ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٥﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٣٦﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَسَ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿٣٧﴾

وَلِلسَّيَّارَةِ: للمسافرين.

الْبَيْتَ الْحَرَامَ: جميع الحرم والمراد الكعبة.

قِيَامًا لِلنَّاسِ: قواماً لمصالحهم دينا ودنيا.

وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ: الأشهر الحرم الأربعة.

وَالْهُدَى: ما يهدي من الأنعام إلى الكعبة.

وَالْقَلَائِدَ: ما يقلد به الهدى علامة له .

إن الاصطياد في حالة الإحرام حرام ، غير أن الذين يسافرون إلى بيت الله عبر الطريق البحري ، قد أبيع لهم صيد الماء وأكله ، وذلك لأن حظر الاصطياد لم يكن محرماً لذاته ، بل إنما كان لأجل «الاختبار» وكفى ، حيث قرر الله بعض الأشياء بصفة رمزية ، ليختبر الإنسان من خلالها ، ولذا فلما رأى الشارع أن الشيء الذي لأجل الاختبار ، قد يصير في موضع ما ، مدعاةً للحرج والمشقة على العباد بدون لزوم ، تُنَوَّل القانون هناك بالتخفيف والتيسير ، فإن المرء إذا نفذ زاده ، وهو يسافر عن طريق البحر ، فلا سبيل إلى الإبقاء على حياته ، سوى أن يستمدّ غذاءه من الحيوانات المائية !

إن الكعبة هي المركز الدائم للإسلام وأهله ، ولقد ربط الله كل فرد مسلم بمركزية الكعبة من خلال جعل التوجه نحوها شرطاً لا بد منه للصلاة ، ثم اتخذ منها مكان اجتماع إسلامي عالمي في شكل فريضة الحج. إن تعظيم الشعائر المقررة في سياق زيارة الكعبة - كالهدي والقلائد وغيرها - لا يرجع كونها تتمتع بأية قدسية ذاتية ، ولكنها بمثابة علاماتٍ لامتحان المرء ، فالعبد حين يقوم بتنفيذ أوامر الله بالنسبة لتلك الشعائر، يجدّد شعوره بالحقيقة القائلة بأن الله وإن كان لا يُرى جهرّةً وعياناً موجود حيّ ؛ يأمر وينهى ما يشاء ، وأنه يرصد ويراقب حركات العباد وسكناتهم كلها ، وأنه خبير ، لا بما نقول وما نفعل علانيةً وحده ، بل وبما نُسر ونضمر في صدورنا ، وهذه المشاعر والأحاسيس تخلق في نفس المرء الخشية من الله ، وتؤهله ليمارس حياته كعبد صادق ومخلص لله على كل المستويات وفي كل الظروف والأحوال.

ومن نقائص الإنسان ومظاهر ضعفه وقصوره انخداعه بالضخامة العددية ، ووفرة الأسباب الظاهرية ، فيعلق عليها الأهمية الكبرى ، وبالتالي يقف إلى جانب أصحابها ، غير أن العبرة عند الله بالتنوع والكيفية ، ولا عبرة عنده تعالى بالمقدار والكمية ، فيزعم الذين يندفعون وراء «الكثرة» متخلين عن «القلة» غير مباليين بها ، يزعمون أنهم عقلاء محنكون ، ولكنهم على أعظم جانب من السفه والغباوة وفساد العقل ؛ إذ إن الناجح حقاً هو الذي يحدد موقفه مراعيًا لحشية الله ، وليس مراعيًا للمخاوف الدنيوية الزائلة ، والمصالح المادية الرخيصة !

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ١١٠﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ١١١ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نَّحْمِرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ١١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاعِلُونَ ١١٣ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١١٤﴾

بَعِيرَةٌ: الناقة تشق أذننها وتخلى للطواغيت إذا ولدت خمسة أبطن آخرها ذكر.

سَائِبَةٌ: الناقة تُسَيَّب للأصنام لنحو براء من مرض أو نجاة في حرب.

وَصِيلَةٌ: الناقة تترك للطواغيت إذا بكرت بأنثى ثم ثنت بأنثى.

حَامٍ: الفحل لا يركب ولا يحمل عليه إذا لقح ولد ولده.

حَسْبُنَا: كافينا.

عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ : ألزموها واحفظوها من المعاصي.

وتُفيد الروايات بأنه لما نزل الأمر بوجوب أداء الحج ، أذن رسول الله ﷺ في الناس فقال : «يا قوم : كُتِبَ عليكم الحج» فقام رجل من بني أسيد فقال : «يا رسول الله ! أفي كل عام؟» فقال : «والذي نفسي بيده ، لو قلت : نعم ، لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ، فاتركوني ما تركتكم ، وإذا أمرتكم بشيء فافعلوا ، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا!»^(١).

إن أسلاف كل أمة يكتسبون حيثة مقدسة على مر الزمن ، وأكثر ظواهر الضلال والانحراف تنشأ باسم الأسلاف ، إذ يتمسك الأخلاف بكل عادة منسوبة إليهم على علاقتها ، ولا يبرحون يُعيدونها من غير وعي ولا حاجة إلى إعمال الفكر والتعقل ، حتى ولو كانت تلك العادة تتعلق بتعظيم الشاة والإبل !

إن التقاليد والعادات الفاسدة التي تقوم على تقديس الماضي ، تكون جذورها متأصلة وراسخة في نفوس القوم لدرجة أن صرفهم عنها يكون أمراً عسيراً ومتعذراً للغاية ، فلا يمكن التحرر والانفكاك من أسر التعقيدات النفسية ، إلا إذا امتلأ قلب المرء باليقين الجازم بأنه سيحضر نهائياً أمام ربه للحساب ، فمثل هذا الشخص لا يلبث أن يعترف بالحقيقة التي يجد كل شخص نفسه مضطراً إلى الاعتراف بها بعد الموت ، ولكن الاعتراف يومئذ لن يغني عن أحد شيئاً.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهِدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّآ إِذَا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿٥٤﴾ فَإِنْ عُبِّرَ

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الأول ، ص ٥٥٤ ، ٥٥٥.

عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَانِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتَيْهِمَا وَمَا آَعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمَنِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَةِ عَلَىٰ وَجْهَهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَمِّنُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٧﴾

ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ: سافرتم فيها.

لَا تُشْرِي بِهِ ثَمَنًا: لَا نَأْخُذُ بِقِسْمِنَا كَذِبًا عَرْضًا دُنْيَوِيًّا.

الْأُولَيَانِ: الْأَقْرَبَانِ إِلَى الْمَيِّتِ الْوَارِثَانِ لَهُ.

وإذا كان رجل في سفر ، ومعه مال وحن أجله في الطريق ، فإن وجد فيما حوله إذ ذاك رجلين من المسلمين ، فليدفع إليهما ماله ، مع الإيعاز إليهما في شأنه ما يريد ، وأما إذا لم يتواجد هناك رجلان من المسلمين ، فله أن يفعل ذلك مع رجلين من غير المسلمين ، وهذان يقومان بدورهما بدفع المال إلى ورثة المتوفى ، وإن كان بيان الشاهدين مظنة شك لدى الورثة ، فليوقفوهما في المسجد بعد أية صلاة ، ويستحلفوهما أمام جمع من المسلمين على أنهما قد أديا الشهادة على وجهها من غير تبديل ولا خيانة ، وإن لم يقتنع الورثة بهذا البيان المدعوم بالقسم ، فليقم رجلان من أنفسهم ، وليحلفا بالله لصالح دعواهم ، ثم يقضى الأمر بعدئذ اعتباراً بشهادة الأخيرين ، إن إعطاء هذا الحق للورثة ، بمثابة سد باب الخيانة دون الخائن ، إذ لولاه لما منعه شيء عن التصرف في مال الموصي ووصيته ، كيفما شاء .

إن من المصالح المودعة في الشريعة الإسلامية أنها تقدم أحكاماً لا يقتصر دورها على معالجة شئون الحياة اليومية فحسب ، بل لها دور تربوي لإعداد المسلم لممارسة حياته الأوسع مدى على وجه أفضل أو بالأحرى وفقاً لمقتضيات العدل والحق ، فإن يتم إيصال تركة الميت إلى المستحقين الشرعيين لها ، قضية أسرية واقتصادية ، ولكنه جعل

وسيلة لتربية الناس على مبدئين هامّين : أولهما : مبدأ عدم المحاباة ، يعني أنه ينبغي للناس أن يقفوا دوماً إلى جانب الحق والحق وحده ، من غير نظير إلى العلاقات والقربات ، ولا اعتبار إذا كان الحق يوافق هواهم أو لا يوافقه .

والثاني : هو أن ينظروا إلى كل شهادة على أنها شهادة الله ، فكل خير ألم به المرء عن كذب ، أمانة إلهية ملقاة في عنقه ، لأن المرء إما شاهده بواسطة العينين الموهوبتين له من عند الله ، واختزنه في ذاكرته الموهوبة له من عند الله كذلك ، ويُعلم الآخرين به مستخدماً لسانه ، وفي هذه الحالة ، فإن المرء سيكون خائناً للأمانة ولا ريب ، إذا لم يحدث بالخبر على الوجه الذي رآه بعينه ، واختزنه في ذاكرته .

﴿ يَوْمَ تَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ (٥١) إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أُيِّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيَ إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٢﴾

بِرُوحِ الْقُدُسِ : جبريل عليه السلام .

في المهد : في زمن الرضاعة قبل أوان الكلام .

وَكَهْلًا : في حال اكتمال القوة (بعد نزوله)

تَخْلُقُ : تصور وتقدر .

الْأَكْمَةَ : الأعمى خلقة .

لم يلبث المؤمنون بالأنبياء في كل زمان ، أن تسرب إليهم الفساد والانحراف في العصور التالية ، فقد اختلفوا ديناً بحسب أهوائهم ، ثم عزوه إلى أنبيائهم ، ولم تكن هناك أية رابطة تصل هذه الشعوب بأنبيائها ، بعد انحرافها عن تعاليمهم الأصلية ، ولكن كل شعب لم يزل يدعي أنه أمة نبي ، فاليهود ينسبون أنفسهم إلى سيدنا موسى عليه السلام والمسيحيون يدعون الانتهاء إلى سيدنا عيسى عليه السلام في حين أن الديانة الراجحة عند كلا الشعبين لا علاقة لها بالنبيين الجليلين !

وهذه الحقيقة مستورة في عالم الامتحان الحاضر ، ولكن حين يأتي يوم القيامة ينكشف النقاب عن وجهها ، فيجمع الله سائر أنبيائه مع الأمم التي بُعثوا إليها على صعيد واحد ، ويسأل كل نبي ، وأمه بين يديه ، عن التعاليم التي عرضها على أمته وكيف كانت استجابتها واعتناقها لتلك التعاليم ؟! ، وهكذا سيتم إطلاع كل أمة بحضرة نبيها على جوانب انحرافها عن الدين الإلهي الذي جاءها به نبيها ، وكيف اخترعت بنفسها ديناً مزعوماً ثم نسبته - كذباً وافتراءً - إلى النبي ؟!

ومن أولئك الأنبياء - على سبيل المثال - سيدنا عيسى عليه السلام الذي يمثل الحلقة الوسطى بين خاتم النبيين والأنبياء السابقين ، لقد أُعطي لسيدنا عيسى عليه السلام معجزات استثنائية للغاية ، أما عدد المؤمنين به في زمانه فكان قليلاً جداً ، بينما كان معارضوه (اليهود) يتمتعون بكل أنواع القوة والغلبة الدنيوية ، ولكنهم - على الرغم من ذلك - لم يتمكنوا من الفتك به ، ولا أفلحت محاولاتهم في القضاء على أصحابه .

وبمقتضى هذه المعجزات الباهرة كان ينبغي للناس أن يبادروا إلى الإيمان بما جاء به من دين الله ، إلا أن النتيجة التي ظهرت أن رفضه معارضوه قائلين بأن معجزاته لا تعدو أن تكون من عجائب السحر والشعوذة ، ومن جانب آخر فإن الذين آمنوا به أول الأمر ، لم يلبثوا أن رفعوه إلى مقام الألوهية فيما بعد !!

وفي يوم القيامة سيكشف القناع عن هذه الحقيقة أمام أديعاء الإيمان بعيسى عليه السلام

بأن تلك الخوارق والمعجزات التي جرت على يديه ﷺ كانت كلها بإذن الله تعالى ، ولم تكن من صنعه ، وأنه لم ينج من الحبائل التي نصبها له أعداؤه ، ومن الأخطار التي حاولوا توريطه فيها ، لم ينج منها بحيلة أو طاقة من عنده ، بل أنجاه الله من ذلك ، والسؤال : إذا أن واقع الأمر هكذا ، والمسيح بنفسه يدلي بشهادته على صدقه أمام ربه وعلى رؤوس الخلائق ، فليقل أتباعه - إذن - من أين جاءهم ذلك الدين - المزعوم - الذي عزوه إليه وهو منه بريء ؟!

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾

الحواريين: أنصار عيسى ﷺ وخواصه .

مائدة: خوانا عليه طعام .

عيداً: سرورا وفرحا أو يوما نعظمه .

على أن نداء الناس للحق واجب يقوم به الداعي ، ولكن تلبية هذا النداء تتم دائماً بتوفيق الله عز وجل ، إذ لا تزال ثمة عقبات كثيرة حائلة بين المرء ومبادرته بقبول الدعوة مع كونه قد عرف صدقها بالدلائل والبراهين ، ومن تلك العقبات - على سبيل المثال لا الحصر - ظهور الداعي في مظهر بشر عادي ، والحذر من تبدد شمل الحياة القائمة

نتيجةً لاعتناقه الدعوة الجديدة ، والسؤال : عما إذا كان هذا هو الصدق ، فما بال أولئك الرجال الكبار الذين لم يبلغهم الخبر ، أكانوا كلهم محرومين من الصدق ؟! ، إن هذا المنعطف جد خطير ، حيث تخيم على المرء حيرة تجعله لا يتخذ قراراً حاسماً ، ، وفي هذا المقام يُمدد الله - جل شأنه - بنصرته وتوفيقه ، فالشخص الذي يجد الله في نفسه خيراً ، يأخذ بيده ، ويخرجه من وادي الحيرة والارتباب إلى دائرة الإيمان واليقين .

إن الإنسان لا يزال يتلقى رزقه من عند ربّه في كل لحظة ، حتى إن الأرض بأكملها قد جعلت بمثابة مائدة زاهرة بمختلف ألوان الرزق المتاح للإنسان ، فلماذا قُوبل المؤمنون بالمسيح بتحذير شديد عندما طالبوا بإنزال الطعام لهم من السماء ، بينما طالب المؤمنون بالمسيح بأن يوفر لهم الرزق بدون الأسباب ، وهذا لا يتفق مع سنة الله ، إذ لو أزيلت الأسباب كلها ، ففيما سيكون الاختبار ؟!

والحقيقة أن حادث ازدهار زروع بهيجة ناضرة في الحقول ، أو خروج شجرة خضراء مثمرة من داخل التراب ، معجزة ، ولكننا لا نرى في الواقع معجزة أو خرقاً للعادة ؛ لأنها تظهر مقنعة بحجاب من العلل والأسباب ، ومن ثم اختبار المرء أن يشاهد الحقيقة ممزقةً بالحجاب من فوقها ، وأن يدرك الرزق النابت من «الأرض» بشكل الرزق النازل من «السماء» ، ولو أن شخصاً قال : إني لن أؤمن بالله حتى أراه رأي العين ، فكأنما قال : إني سأدخل في رحمة الله بدون الامتحان ، بينما هذا مستحيل ، لكونه خلافاً لسنة الابتلاء الإلهية العامة !

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۖ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۖ﴾ (٣١) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۖ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۖ﴾ (٣٢) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ

عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٥﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ هُمْ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٦﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٧﴾ ﴿١١٨﴾

سُبْحَانَكَ: تنزيها لك من أن أقول بذلك.

تَوْفَّقَنِي: أخذتني إليك وافيا برفعي إلى السماء.

إن القيامة حين تقوم ، فستصبح الحقائق مكشوفة للعيان ؛ بحيث لا يعود المرء بحاجة إلى دليل يدلّه على الحق والباطل ، فإن جميع البشر سيرون بأعينهم أن كل القوى والطاقات بيد الله تعالى وحده ، وأنه لا شريك له في كونه وحده خالقاً ومالكاً ومعبوداً ومطلوباً للجميع ، وأن كل ما عده ومن عده لا يملك شيئاً من القدرة ، ولا أحد سواه جدير بأن يُعبد أو يُطاع ، فإذا توجه الله إلى رسله سائلاً من الرسالة التي بعثهم بها إلى أهل الأرض فسيكون ذلك سؤالاً عن شيءٍ معلوم لدى الجميع ، إذ الجواب عن السؤال المطروح سيكون واضحاً وصارخاً لدرجة أن صدها يرتفع ويُسمع من محيط القيامة بأسره من غير أن يرفع به أحد عقيرته! ولا يكون هذا التساؤل بين الله ورسله إلا من أجل إشعار الناس بمزيد من الحزني والهوان ، وإعلامهم بأن الدين الذي كانوا قد اصطنعوه باسم أولئك الأنبياء ، لم يكن يمتُّ إلى تعاليمهم الحقيقية الأصلية بصلّة قريبة ولا بعيدة!!

لقد خلقت هذه الدنيا من أجل الامتحان ، مما اقتضى أن يتمتع كل إنسان بالحرية والاختيار ، فبإمكان المرء أن يعزو إلى الله ورسله ديناً لا علاقة له بهما ، ولا يزال يزدهر، ويتقلب في النعيم والسعادة ، كما يمكن أن يُثبت أحد جدارته واستحقاقه للجنة، حتى على أساس من الآمال المزعومة والأمانى الكاذبة ، ومن الممكن أن يثير المرء معارك لا

تخدم سوى أغراضه الذاتية وطموحاته القيادية ، ثم يؤكد بأن كل ما يفعله ، عين الدين الإلهي !! غير أن شيئاً من هذا النوع لن يجدي يوم القيامة فتيلاً ، وإنما الشيء الوحيد الذي سينفع المرء يوم القيامة أن يتم اعتباره في نظر الله «صادقاً» ، يكون امتحان الأمم في تحقق صدقها وخلاصها في دعوى الإيمان عملياً.